رحلة إلى الشرق

فلسطين ولبنان وقرطاج

تأليف

غوسطاف فلوبير

ترجمة

د. فريد الزاهي

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS47 .F53 2013

Flaubert, Gustave ,1821-1880

رحلة إلى الشرق: فلسطين ولبنان وقرطاج/ تأليف: غوسطاف فلوبي، ترجمة: فريد الزاهي.-

ط. 1.-

أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.

ص. ؛ سم.

ترجمة كتاب: Voyage en Orient : Carthage, Palestine, Syrie, Liban

تدمك: 7 - 269 - 17 - 9948 - 978

1. الشرق الأوسط -- وصف ورحلات -- القرن 19. أ. زاهي، فريد. ب. العنوان.





الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

رحلة إلى الشرق

من الإسكندرية إلى بيروت[1]

في اليوم التالي ركبنا متن سفينة ألكساندرا. لم نقلع إلا في اليوم التالي، الأربعاء، بسبب دوامة الماء، وقد غادرنا المكان وأنا نائم، فلم أر أرض مصر وهي تغيب وراء الأفق، ولا حييتُها مودعا، فهل ترى سوف تتاح لي الفرصة لرؤيتها من جديد؟

قبطان غير بشوش، شامخ بأنفه إلى السماء، مثله في ذلك مثل الكونت مورباس[2].

....

لا أثر لدوار البحر.

رأيت على متن السفينة زنجية صغيرة يملكها تجار مسيحيون من سوريا، لم تكفّ عن البكاء بحرقة، وقد بقيَت طيلة الوقت تقريبًا مضطجعة على جنبها في الشمس إلى جوار المدفأة. ذكّرتني بزنجيّ كنت أراه يتسكع في شوارع الإسكندرية، مرتديًا زيًّا أوربيًّا وهو يعتمر قبعة ويمسك بعكاز في يده. معنا أيضًا راهبان، أحدهما هولنديّ متّجه إلى بلاد فارس، والآخر إيطاليّ حسب ما يبدو من هيئته، لا أعلم وجهته.

مساء الخميس بدا لنا برُّ سوريا في الأفق. ضبابٌ كثيفٌ عند الشاطئ، ورطوبةٌ تغشى كل شيء، وبضعة أنوارٍ تلمع على سطح الماء عند ملتقى البحر باليابسة. تلك هي بيروت. السفينة تمضي بسرعةٍ منخفضةٍ، والصمت مطبق. يعلو صياح دجاجةٍ في المقدِّمة، فيما يواصل القنديل المعلق إلى السارية طقطقته. تصدر أوامر من القبطان، فيقيس الملّاحون عمق المياه. تتحرك السفينة بنا ثم تتوقف من جديد. غاب القمر في الأفق البعيد واكتست صفحة السماء نجومًا تتخلّلها نجوم. صوت أزيز رفيع يأتي من ناحية البر (هل تراه صوت

---

(1) تتبع هذه الرحلةُ إلى فلسطين ولبنان الرحلةَ إلى مصر التي ترجمها سابقا للغة العربية صلاح صلاح، دار السويدي للنشر والتوزيع ودار ورد السورية، 2008.

(2) الكونت دو موروباص رجل سياسي فرنسي (1801 ـ 1887) شغل منصب كاتب دولة للويس الخامس عشر ووزير دولة للويس السادس عشر. وسيلاحظ القارئ أن فلوبير يحيل مرات عديدة إلى شخصيات سياسية وثقافية معاصرة له.

الصرار الحصاد؟) ثم تناهى إلى الأسماع صياح ديك أجاب عليه ديك آخر بصياح مثله، فيما الأضواء على البر تتضخم رويدًا. تركنا عن شمالنا سفينة متوقفةً ونور قمرة القبطان فيها مُضاء. ألقت السفينة مرساتها فدخلت لأنام، وكانت الساعة عندئذ تشير إلى الثالثة فجرًا.

2 ـ فلسطين ولبنان

الجمعة 19. غادرنا السفينة في السابعة صباحًا. صوت النوتي الذي يقود قاربنا يذكرني بصوت بائع اللُّبَّين. حملنا معنا على القارب فتاة شابة من الألزاس ذاهبة لموافاة خطيبها في القدس، وحملنا معها شابًّا ألمانيًّا ذا نظارات كان يرافقها. نزولٌ من القارب فحرجٌ فغضب، من أثر غباء القائمين على المحاجر الصحيّة عمومًا، وغباء القائم على محجر بيروت على وجه الخصوص. كأنّه طبيب السفينة حين يغتسل، بصلعته وقبعة القش في الماء. انتهى سوء التفاهم، وريح قوية تهب على المحجر. في المساء، استحممنا في البحر، ويا له من بحر! جبل لبنان مكلّل بالغيوم، وأفواج من الصراصير تتقافز وسط الأعشاب. عدنا بعد ذلك إلى المحجر. صوت النوتي الذي قادنا إليه يذكرني بصوت بائع اللبين. حرجٌ من جديد عند نزولنا بالمحجر. القائم على المكان رجل طويل القامة نحيف، إحدى عينيه بها حَوَل. ثلاثة أيام ظلّت الريح خلالها تجأر من خلال النوافذ، وفي الممر مهاجرٌ إيطالي يوجه ضربات مجنونة إلى الجدران. ذهبنا إلى شاطئ البحر فسبحنا في مياهه.

صباح يوم الثلاثاء غادرنا المحجر. شاهدنا رجلًا ببردة مقلّمة وكوفية يُقْبل نحونا على ظهر حصان، بوجه شاحب وهيئة توحي بالاعتداد بالنفس.

صفوف من أشجار التين على جانبي الطريق، ومقهى على الشاطئ، ومسافرون يمتطون حميرا. أحسست من أثر ذلك وكأن أحدا نشر أمامي مجموعة من الشرائط الملونة ثم راح يهزها في يده هزًّا.

بيروت: البيوت من حجر، تذكِّرك بأنك لم تعد في مصر، وشيء ما يوحي إلى الذهن بذكرى الحروب الصليبية. قصر باتيستا في أعالي الميناء. على اليمين حصن قائم في البحر

دمره الإنجليز. الناس يتخاطفون ثمار البطيخ القادم من يافا، والأطفال الذين يسبحون طيلة اليوم هناك يتخذون عمائم خضراء من قشوره الطافية على صفحة الماء.

الفندق: المستشار النمساوي: «هل مقامكم في دمشق ممتع ؟ هل تقضون أمسيات هادئة؟». هناك رجل روسي والقبطان المالطي والمهاجر الإيطالي الذي بدا لي وغدًا نذلًا، والذي قبل منا فرنكاتنا الخمسين دون تردّد. السوق: مكان مزدحم غاص بالناس. كميات كبيرة من الحرير. أمسيات رمضانية، وآلات صغيرة في المقاهي تصدر عنها أصوات عالية. شربنا هناك ماء مثلجا.

التقينا السادة ليسباردا وروجيي وبيريتيي، والسيدة والسيد سوكي.

المقبرة ذات مساء عند انصرام النهار: ثلاثة خرفان ترعى العشب بين الحجارة، ورجل عربي مضطجع فوق قبر، وإلى جواره اثنان أو ثلاثة آخرون يبدو أنهم يتمازحون وهم يأخذون قسطًا من الراحة. طريق تخترق المقبرة فتمر تارة بين القبور وطورا فوقها. البحر والخضرة وبيروت إلى اليمين ومروج خضراء تمتد إلى ما لانهاية. رجل كهل نحيف، بلحية قد وخطَها الشيب، يقتعد حجرا وهو يتمتم بدعوات ممسكًا بمسبحة. حائط يحيط بقبرين اثنين، بسقف على شكل خيمة لحماية النباتات التي تظل أوراقُها القبرين.

وجبة خفيفة فوق عشب الصنوبر، ورهبان يمرون من هناك وعلى رؤوسهم قبعات مغطاة بمناديل. جمال محيطٌ وسماء تبدو قرمزية فوق أعالي الجبال من خلال أوراق الشجر. صبيحة عند روجيي؛ التركية الصغيرة وقد جدلت شعرها بالياسمين. فاطمة حزينة. المرأة البدينة والأخرى النحيفة. صلعة روجيي تنم عن هدوء وطمأنينة. نخوةٌ يتمتع بها عبد الله.

غادرنا بيروت على الرابعة والنصف فجرًا. رمال في البداية بين ضفتي الطرق المسيجتان، ثم الجبال، بسفوحها التي تمضي مصعِّدة، وبين الوهاد غبار من النور كأنّه نُدَفٌ من ثلج أثيري تقف هناك جامدة وقد تشبعت بالهواء، وإلى اليمين يمتد البحر. جلدُ سرجي يصدِر صوتًا من أثر الاحتكاك. باقات من أشجار الخروب تلقي بأغصانها إلى الأرض وتبدو مشذَّبة كأنّها أشجار حديقة قد تعهَّدتها يد خبيرة بالعناية والاهتمام. لقاء مع أحد البوهيميين

(لست أظنّه منهم): طفل يحمل صندوقًا كبيرًا فوق رأسه، وقف عند رأس حصاني وشرع يومئ لي مشيرا إلى السماء وهو يردد اسم الله مرات عديدة بطريقة تستجلب الشفقة. نساء يحملن أطفالهن في حمالات تشبه الأسرَّة معلقةٍ على صدورهن. شجيرات دفلى منتشرة، ونهر الدامور، ومنعرج يبدو كأنّه جانب من حديقة عمومية، وخلفه بمسافة تبدو أطلال جسر قديم لم يبق قائمًا منه سوى الدعامتين الرئيستين. نباتات الدفلى تمتد حتى شاطئ البحر، وقد غاصت قوائم خيولنا في الماء.

تناولنا الطعام عند الحادية عشرة والنصف، في مكان يدعى «خان يونس، يقال إنه هو الذي طرُح عنده الحوت النبي يونس. منحدر كبير يمضي نحو الشاطئ، ودوحتان عظيمتان. نِمت على حصير في مقهى صغير، وأمامنا ما يشبه حديقة صغيرة تكسوها أعشاب جافة. بغالنا وقد أنيخت عنها الأحمال تتمرغ في التراب. غادرنا المكان في الثانية. الطريق التي اتبعناها (وهي طريق قديمة، تنكشف آثارها تحت أقدامنا بين الحين والحين)، تمضي متعرّجة صعودًا ثم تنحدر صوب الشاطئ فتسير جنب البحر ثم البحر ثم البحر، فتتوغل في الرّمل ثم تعود لتصعد بين الأحجار في خط متعرجّ لا تتَّبعه الخيل إلا بصعوبة. سفوح الجبال تنحدر في غير ما استواء بسبب الأحجار المتناثرة هناك وسط الخضرة، حتى ليبدو المكان كأنّه مقبرة مهجورة.

صيدا تتراءى في الأفق البعيد، على رأس لسان من الأرض يمتد داخل البحر مثل كومة كبيرة من الرمل. أمام المدينة صخرة طويلة يحيط بها عدد من السفن الراسية. حدائق، وصمت المدينة ونحن ندخلها. شيخ أعمى يعتمر عمامة خضراء، يقوده طفل. في وسط الأزقة حفرة مستطيلة مخصصة للخيول. روائح بخور تذكر بالكنيسة، ورائحة كهنوتية فيها شيءٌ ما يذكِّر ببرودة الكنائس المنعشة في فصل الصيف. خان فرنسيّ، وحوض مربّع في الوسط، وشجرة موز. خيل الأمير بشير، ثم دير إخوة الأرض المقدسة. الطبيب غاياردون وأريكته، وعشاء في قاعة فسيحة. آنية كبيرة من القصدير يحملون فيها الماء ليصبوا لنا منها في أقداحنا. الأب كاسيمير بلحيته الطويلة، يتكلم الإيطالية بسرعة وبعينين مغلقتين.

الأربعاء 31 يوليو / تموز، التاسعة مساء. لم يكن نهار اليوم حافلا كسابقه بالأحداث. غادرنا صيدا عبر البساتين ثم انحدرنا صوب الشاطئ فسرنا حذاءه طيلة النهار تقريبًا. الجبال اليوم أقل ارتفاعًا منها بالأمس وأبعد عن البحر. مررنا ببرج قديم من أيام الحروب الصليبية، تحيط الحشائش بقاعدته وتضيء أشعة الشمس المشرقة جسمه، ثم سرنا طيلة يومنا تقريبا في أرض ممتدة تكسوها النباتات الشائكة الجافة وأشجار خروب صغيرة حصدتها رياح البحر؛ ومن حين لآخر حقل ذرة أو منبت تبغ. في الصباح اجتزنا نهرا يعلوه جسر ذو زاوية قد سقط عنه ثالث أقواسه وتدحرجت كتلة الحجر حتى استقرت مائلة على جنبها فبقيت هناك تحت الشمس.

تناولنا الطعام في عين عذرا، على شاطئ البحر، قبالة خليج صغير بدا لنا من خلال دوحتين عظيمتين منتصبتين هناك. حوض مربّع، تناولنا ونحن جلوس على حافّته طعامًا مكوّنًا من تين ولحم بارد ومربّى تمر. شجرة تين كبيرة تنتصب في الساحة خلف البيت، حيث يجري جدول صغير يصب في الحوض، وعجل يرضع من ضرع بقرة ذات لون رمادي فاتح.

انطلقنا فمررنا بنهرٍ ثانٍ. بقيت واقفًا على الشاطئ ممتطيًا حصاني أشاهد البغال وهي تعبر من خلال أكمة شجيرات الدفلى التي تنمو بكثافة على مقربة من الماء. أما الخلاء المحيط ففي غاية الكآبة. نهر ثالث اجتزناه مرورًا فوق جسر. النهر عريض جدًّا ولون مائه شديد الخضرة. كوخ من القش توقفنا فيه للاستراحة، حيث رجلٌ مسنّ جالس وجسمه لا يكف عن الارتعاش.

تقع مدينة صور في وسط ما يشبه هلالًا مُنفرج الطرفين. بلغناها عند الثانية بعد الظهر فنزلنا في الدير اليوناني. لا شيء عدا أسواق قبيحة وصمت كصمت القبور، وهنا وهناك طفل رائع الجمال. الناس هنا، أقصد النساء، ذوات جمال أخّاذ حسب ما استطعت أن أرى منه. قبل وصولنا إلى صور، مررنا بسفينة قديمة قد احتجزتها الرمال، ورجل يغسل خروفًا في البحر؛ أمّا الميناء فعلى يسار الداخل إلى المدينة. كتلتان كبيرتان من الصخر تنتصبان في

الماء. يتطلب الصعود إلى الحي العلوي من المدينة المرور جنب حائط منزل تغوص أساساته في الماء، فيعبر العابر ماشيًا فوق أحجار متناثرة حينًا ومصطفة على شكل رصيف حينًا آخر. لا أحد في الأعلى، بل صمت مطبق مثلما عليه الأمر أسفل المدينة أو يزيد. راية قنصل نابولي ترفرف فوق صاريتها أعلى أحد المنازل. أسوار ومنظر لزرقة البحر. سماء كئيبة تنتثر على صفحتها بضع سحب، وهواء قاتم على انتشار الضوء فيه. المدينة محاطة بأسوار من القرون الوسطى، مثل مدينة إيغ ـ مورت الفرنسية. على بعد نحو نصف مرمى بندقية منا ينتثر عدد من الأعمدة الجرانيتية في الماء، وهناك بعض منها في الميناء كذلك، يغسلها ماء البحر ثم يعيد غسلها دون توقُّف.

كان هناك، في المكان الذي كنا فيه، منعطف من السور يقوم على شكل زاوية، وعلى صفحة الماء الزرقاء راحت أشعة الشمس تتلألأ. السيد إلياس، وهو عميل فرنسي، يكابد الاحتضار. هناك أريكة كبيرة بيضاء تحيط بها أخرى مقوّسة، كشكل الكنائس العتيقة، وزوجته القصيرة المكتنزة تنفخ في غليون تركي لتنظفه. أذكر منظر شدقيها المنتفخين وخصلات شعرها الحريري المُنسدل الذي يجاوز خصرها. الخادمة السوداء طويلة القامة بقبقابيها وهي ترش الماء في الباحة، وامرأة جاوزت سن الشباب تجلس قبالتنا منفرجة الساقين جامدة لا تتحرك، بعينين سوداوين ينشق عنهما الجفنان، وأنف بارز معقوف، ووجه كأنّه قُدَّ من مرمر، جعلني مرآها أتفكر في الأجناس القديمة وفي ما يمكن أن تكون عليه زوجة طبيب من صور، ثم ابنتها بوجهها البيضاوي وبشرتها البيضاء وشعرها الأسود.

من أعلى سطح ذلك المنزل يتبدّى البحر والأسوار والمنازل الأخرى بأسطحها البيضاء التي يزيد بياضَها نصاعةً ما يحول بينها من خضرة. بعض النخيل (نخلة صور المنقوشة على الميداليا) المنحنية رؤوسه صوب الأرض، وسهل منبسط. جبل لبنان: سلسلة غير ذات ارتفاع، لونها رماديّ يميل إلى البنفسجي، وخلفها سلسلة ثانية، بلون بنفسجي شاحب، تختفي قممها في السحاب وتكتسي أعاليها ثلجًا كلون اللّبن، كأنّها صيغت من هواء. عشاء رديء. طلبت زوجة السيد إلياس من يوسف إزارًا صغيرًا للفراش. فتىً شاب، ابن العميل النمساوي، الذي أعطيناه بعضا من سولفات الكينين. في باحة الدير اليوناني ليس هناك

دير ولا يونان، بل فقط بضع فتيات جميلات على يمين المدخل، وبضعة بحارة يونانيين. هي أسرة تقيم هناك. بدا لي المكان أشبه بماخور للدعارة، وهو ما دغدغ غروري إذ ذكرني بصاحبة سمعون[1]، التي جعلتُها ترقص عارية أمام بحارة يونانيين.

نمنا قبل الآخرين، على حُصُر في غرفة واسعة. لم يتوقف البق وغيره من الحشرات عن لسعنا طيلة ليلنا. القنديل المعلق قرب الباب المفتوح ينير المكان، وأصوات أجراس البغال تتردَّد في صمت الليل.

يوم الجمعة. انطلقنا عند الرابعة فجرًا، قبل طلوع الشمس. مرحلة بدت لي أقصر من سابقتها وإن تكن في واقع الأمر أطول. أشجار الدفلى أقل كثافة من ذي قبل؛ لكنه تغيير، والتغيير كما هو معلومٌ يطرد الملل. الجبل ما زال يمتد إلى شِمالنا، فيمضي مُنحدرًا حتى تصبح قممه مجرد تموُّج على صفحة الأرض. باقات من شجيرات ذات أزهار بنفسجية تشبه أشجار الخزامى، والأشجار القائمة إلى جانب البحر منحنية الجذوع قد حصدت ريح البحر أعلاها فجعلته مستويًا.

يجد الخارج من المدينة أمامه برجًا مربّعًا غارقًا في الخضرة المحيطة، يبدو لونه في ضوء الفجر قاتمًا مائلا إلى الاخضرار. والبرج ذو شكل مربع، مع استدارة عند الزوايا، ونوافذ تمضي في اتساع من الداخل إلى الخارج. كان هناك سلّم حجري يتيح الصعود إليه، لكن ذلك لم يعد اليوم ممكنًا، إذ انهدم جزء من السلم فحالت فجوة بينه وبين جسم البرج. وفي مكان حوض سليمان رأيت حوضًا كبيرًا مربعًا، وتجمُّعا من الطواحين وأصوات الماء الجاري، فيما الأكواخ والخضرة تستند كلها إلى منحدر من الأرض. لحق بنا شاب يرتدي سترة خضراء، له أنف مقوس كأنف السيد دو رادبون[2] وعينان سوداوان، بدا لي وسيماً

---

(1) هي هيلانة المومس، صاحبة سمعون الساحر، في رواية «فتنة القديس أنطونيوس» التي كان الكاتب قد انتهى لتوه من تأليفها في 1849.

(2) هو أحد أصدقاء آل بوتفان Pottevin، وكان الكاتب قد زاره على دعوة منه رفقة صديقه ألفريد دو بوتفان عام 1837.

المقصود بالتذكرة تصريح الجمارك.

على بعد فلما اقترب وجدته دميًا، وكان يمتطي حصانًا على الطريقة التركية، ببساط يكسو سرجه. الطريق القديمة تبدو بين الحين والآخر، وهي طريق مستقيمة قد تم رسم مسارها بتقنية الحبل الممدود، عريضةٌ في عرض طريق كبيرة من الدرجة الثالثة.

سرنا وخيولنا تتعثر بين الأحجار الكبيرة الناتئة. إلى الشمال منحدر صاعد وإلى اليمين منحدر نازل، وأحجار في وسط الخضرة أو خضرة في وسط الأحجار. الشجيرات ذات الزهور البنفسجية كالتي رأينا بالأمس، وكذا أشجار الخروب وغيرها. تمضي الطريق مصعِّدة عبر الجبل الأبيض. طريق وعرة، كأنّها طريق الكورنيش عندنا لكنها أكثر ارتفاعًا. نصعِّد ثم نصعد، وظهور الخيل تلتوي تحتنا أيما التواء. درجات سلم ضخم من نحت الطبيعة، نتسلقها واحدة تلو الأخرى، في مسير ينعطف من حين لحين. من حين لآخر يبدو لك البحر فجأة بين أذني حصانك، على بضع مئات من الأقدام إلى الأسفل، في منظر ساحر يخلب الألباب. الهبوط أكثر صعوبة، والطريق تظهر من جديد ثم تتوقف عند نبعين يجري منهما الماء مدرارا. جبل ثان نصعده لكن دون أن نشاهد مناظر خلاّبة كالتي شاهدناها ونحن نرتقي سابقه، فلا يرى المرء البحر إلا متى بلغ القمة، حيث يبدو له بغتة واسعا فسيحًا، بحرا تسبح فوقه تلك الزوارق ذات المقدمة الملونة. من هنا يمكن رؤية مدينة صور، ولا شك أنهم كانوا في الماضي يأتون إلى هنا ليرقبوا وصول السفن القادمة من حيث لا أدري. سهل يمتد منبسطا عند أقدامنا إلى الشِّمال، ومنزل عتيق وقفنا نستريح في ظله، وقطعتان من الغائط تحتلان أجمل مكان هناك. لا مناص من مواصلة المسير، لذلك سرنا نازلين. تناولنا طعامنا في الأجمة التي كانت تتراءى لنا من أعلى، ونمنا على جانب الطريق تحت شجرة صفصاف.

انطلقنا ثانية نسير قُدُمًا في خط مستقيم. مرق أحدُ الانكشارية من جانبنا مرتديًا لباسا أبيض، فسار يعدو على صهوة حصانه. وعند مدخل جسر صغير وجدنا جماعة من الناس ذوي سحنات غريبة، بوجوه لفحتها الشمس، يرتدي بعضهم فروة غزال أو جلد خروف، يعتمرون قبعات ذات رؤوس مدببة، ويحمل اثنان منهم على كتفيهما جسمين طويلين مغلفين، يمكن أن يكونا قيثارتين أو لعلهما بندقيتان. كانوا مجموعة من الدراويش أوقفتهم

شرطة المنطقة لكونهم مسافرين دون «تذكرة». خمنَّا أننا إزاء جماعة لا يؤمَن جانبهم، فاقترب ماكس من أمتعتنا وبقي قربها. التقينا ببدوٍ ومتجهين إلى عكا لبيع محصولهم من القمح. أناس ببشرة سمراء من أثر الشمس، يجمعون بين الوسامة والأناقة، يضع كل منهم عقالا فوق رأسه يمسك به كوفية مقلّمة تنسدل على كتفيه. امرأتان تسيران على قدميهما، إحداهما شفتاها ملونتان بالأزرق.

قناة الجزار باشا تتراءى لنا، فتمضي مخترقة الأراضي أمامنا. كنا قد مررنا بها من ذي قبل، وكانت الأعشاب تخفيها عن الأعين. لا شيء أجمل من منظر الريف حين تتأمله من تحت قوس جسر أو قناة ماء، وخصوصًا متى كانت قافلة من الإبل أو البغال تعبر من تحته.

عكا: تبدو المدينة من بعيد على شكل مستطيل يقف برج على كل زاوية من زواياه. بدت لي المدينة حين دخلناها عبارة عن سوق كبير يعج نشاطًا. باعة الشربات[1] والمشروبات الباردة، يحملون قطعًا من الثلج على رؤوس رماح حديدية. الخان حيث وضعنا أمتعتنا متّسخ الجوانب ومهمل. تناولنا طعام العشاء في إحدى الحانات، وكان عبارة عن مرق بالطماطم، التهمناه بنهم ونحن نرتشف شربات بالثلج تحمل عطر العنب والورد وقصب السكر. جاءنا وغدٌ ذو شعر قد وَخَطه الشيب يطرح علينا بلكْنة إنجليزية سؤالًا تلو الآخر كأنّه من رجال الشرطة. نمنا بجوار حوض الخان الجاف، على أسرتنا، تحت صفصافة علق إليها قنديل زيتيّ تضيء فتيلته الأوراق فوق رأسي.

عكّا مدينة كئيبة خالية، بِدُورٍ مبنية بالحجر على غرار مثيلاتها في باقي المدن الصغيرة، يستحضر الذهن عند تأمل أزقّتها معاركَ خاضها المحاربون الصليبيون في تلك البقاع. كثير من البدو يملؤون بأكوام من القمح ساحةً تنفتح على البحر، حيث مدخل الميناء الذي لا وجود له. هناك خليج واسع لا بأس به، لكن لا يمكن أن يقام ميناء إلا في حيفا. رأينا قبرين لضابطين إنجليزيين في وسط المدينة، فتساءلنا لماذا لم يدفنوهما في مقبرة الأتراك. هو تمييز

---

(1) هي الكلمة العربية التي اشتق منها لفظ sorbet الفرنسي، بمعنى قالب من الثلج المحلى والمطعم بنكهة فاكهة من الفواكه.

ينم عن اعتدادٍ بالنفس مؤسف. رأينا بعدهما قبرين عتيقين، أحدهما مزين بجرة من طين والآخر مربع على طريقة الرومان، ومن حولهما الكلاب تضع فضلاتها.

ساحة كبيرة ومخيّم عسكري قديم محصّن، محاط بأقواس عديدة تحمل أقواسًا أخرى. المكان على شكل مسرح رومانيّ، ذكرني مرآه لأول وهلة بمسرح مدينة نيم في جنوب فرنسا، مع آثارٍ لضربات مدافع الإنجليز التي عثرنا عليها بالأمس قبل بلوغنا عكّا، على قذيفة منها في أحد الحقول. رأينا في طريقنا نساءً يغرزن على جوانب أغطية رؤوسهن مشابك صغيرة تحمل قطعا نقدية من فئة القرش أو التالاري[1].

الطريق من صيدا إلى حيفا تمضي بمحاذاة البحر لا تبتعد عنه. على الشاطئ بقايا من البطيخ الأخضر قد ابيضَّ بعضه من أثر الشمس، فبدا جوفها كجوف جمجمة فارغة. لا شيء يبعث على الحزن مثل منظر فاكهة جميلة قد علاها الوسخ. سلال قد رمى بها البحر، وبقايا سفن غارقة، وحُصُرٌ وهياكلُ سفنٍ غارقةٌ في الرمل كأنّها أجساد حيوانات بحرية نفقت من الشيخوخة على الشاطئ، وفي أقصى الخليج سفينة مضطجعة على جنبها لم يبق منها سوى الهيكلِ الداخلي والصارية الكبرى، فبدت كأنّها فكّ فم فاغر قد انحصر فيه عود مما يستعمل في تخَلُّلِ الأسنان. قطعنا بعد ذلك نهرين خوضًا، وكان ثانيهما أعرض من سابقه وأبعد غورًا، فغاصت قوائم خيولنا في الماء حتى بلغ بطونها.

حيفا مدينة حديثة وسوق عارية لا تسترها من الشمس حصائر. أخبرنا العميل الفرنسي حين التقيناه بأن الوهابيين قد استولوا على مكة. على الشاطئ طائر رمادي برؤوس ريش سوداء وقوائم قصيرة، لعله نورس، يطير ثم يدرج أمامي، يحلق مبتعدا ثم يرجع متهاديا، وشعور بالارتياح يغمرني. الطريق من حيفا إلى الكرمل تمضي صاعدة، وعند أسفل الطريق المنحدرة المؤدية إلى الدير تقف أشجار زيتون ضخمة بجذوع مجوفة: إنها تخوم الأرض المقدسة، وأشجار الزيتون تقوم هناك عند أقدام الجبل مثلما تقوم أيضا على جانبي المنحدر، كما قرأنا ذلك في القصص المقدسة. فكرت في شاتوبريان عند زيارته لفلسطين، والسيد

(1) عملة قديمة من البندقية كانت لا تزال جارية في أرض المشرق آنذاك.

المسيح الذي سار على هذه الطريق بقدمين حافيتين. بلغنا الدير حوالي الثانية عشرة ظهرا. الريح تهب بعنف، وأمام الدير قطعة أرض زرعت بقولا، في وسطها نصب على هيئة هرم، عند المكان الذي دفنت به رفات الجنود الفرنسيين الذين سقطوا في عكا أثناء حملة نابليون بونابرت.

جبل الكرمل: السبت 3 غشت / آب 1850، الساعة التاسعة والنصف مساء. الدير، بناية كبيرة بيضاء. كنيسة محصنة ذات قبة. حتى المشربيّات أُخفيت بعناية. لا شيء مما يستثير الاهتمام. يشعر المرء أنه في دير عصري. المذبح بارد نظيف، لا شيء فيه حقيقي. ما أشدّ ما يوحي به المكان من معانٍ دينية! ليس هذا بالكرمل رغم أنّنا على الكرمل نقف! تحت مذبح الكنيسة مغارة النبي إيليا. الأب شارل، الأب المضيف. استسلمنا لقيلولة، تلاها تدوين مذكراتنا ثم تناوُلُ طعام العشاء. قيدَ ماكس خيرَ ما عند الرحالة في الكتاب.

الأحد 4 غشت / آب 1850. زرنا الدير، حيث التقينا بقبطان تاجر من مرسيليا مع غلامه. انطلقنا الساعة التاسعة صباحا حتى بلغنا حصن الحجاج، فوق رمال تسيخ فيها الأقدام سيخًا.

حصن الحجاج: أطلال تبعث على الإعجاب وعلى الأسى معا. لله در المحاربين الصليبيين! أي صدور كانت صدورهم وأي أياد كانت أياديهم! الحصن مبني على المنوال ذاته الذي بني عليه حصن شاتو ـ غايار، الذي يعود إلى الفترة ذاتها، فترة الحرب الصليبية الثالثة، أيام فيليب أوغست وريتشارد قلب الأسد. كل ما هنالك أن جسم البناء المشيد من الزلط والطين قد جرى إلباسه طبقةً من الحجر المنحوت من الصخر. جانب كبير من السور لا يزال قائمًا يمضي في خط مستقيم، على طرفه الذي يلينا برج صغير هل هو (عربي؟) وعلى الطرف الذي يلي البحر قاعة فسيحة جميلة البناء بيضاوية الشكل لعلها قاعة الحرس. السور مبني بحجارة ضخمة، وله بوابة تفضي إلى البحر. من الجهة المقابلة للبرّ هناك سفينة صغيرة راسية إلى اليمين، تحمل رافعة تستخدمها في نقل الأحجار إلى عكا. منظر عام للأطلال: إلى اليسار بئر معطلة، وإلى الأعلى بناية مربعة حديثة نسبيًّا، مشيدة بأحجار من الحصن، يقيم بها

بعض العرب الذين طلب أحدهم من جوزيف أن يريه مديته. بضعة أكواخ عربية في المكان وكلابٌ تنبح، ومنظر يشتمل على مفارقة بين البناء القادم من العالم الجرماني والنورمندي الغارق عادة في الرطوبة والضباب، وبين هذه السماء وهذه الشمس وهذا البحر.

يمتد المنظر منبسطًا حتى قرية الدرة. إلى شمالنا تتراءى سلسلة التلال بلونها الترابي الأحمر، تبدو كالمنقوشة من أثر لون الأحجار الرمادية التي تنتثر فوق أديمها، وفي مكان ناتئ من الأرض اختلط اللونان الأبيض والرمادي، حيث استقرت بلاطات كبيرة من الحجر. منزلان مربعان أو ثلاثة في الأعلى، وفي أسفل المنحدر تقريبا شجرة تشبه الدردار ممزقة الجذع، بجذور بادية على وجه الأرض طول الواحد منها ضعف طول الحصان، تبدو كحبال ضخمة ملقاة هناك بغير ما ترتيب عند أصل الشجرة.

خلال هذه الأيام كلها، أسراب من زيز الحصاد والعظاية والسمندل والحرباء تتجول في كسل على حافة النباتات الجافة أو على أوراق التين الشوكي. التقط حنّا أحد تلك الحيوانات ممسكًا إياه من ذنبه فأعطاه إلى ماكس الذي وضعه فوق عرف حصانه، فصعد الزاحف ذو البقع البنية متسلّقًا عنق الحصان حتى بلغ أذنيه ثم انزلق ساقطًا أرضًا، فأوشك حصان جوزيف الذي كان يسير وراءنا أن يسحقه تحت حوافره.

الدرة، قرية صغيرة على شاطئ البحر. في ركن الخان الذي نزلنا به رجال يجلسون القرفصاء، أحدهم يتلو آيات من القرآن بصوت عالٍ فيما الآخرون يستمعون، وآخر مسلمٌ رأسَه إلى المزين يحلقه له. أنزلونا في الطابق الأول، في قاعة فسيحة يبدو أنها تعود إلى أيام الصليبيين، لا يستر المقيم بها من الريح ساتر. تناولنا طعام العشاء جلوسًا على بساط فُرِشَ أرضا، فوق السقيفة المنبسطة المطلة على البحر. قبل العشاء قمنا بنزهة على طول شاطئ الخليج الصغير، قادتنا إلى بقايا برج مهدَّم يشرف على البحر. هناك رأينا في المياه بقايا بنايات قديمة لعلها تعود إلى أيام حصن الحجاج الذي يتراءى في البعيد. عند الرجوع عدنا نخوض في ماء البحر بسبب المدّ، وقضينا بعدئذ ليلة مليئة بالحشرات.

يوم الاثنين. انطلقنا قبل بزوغ ضوء النهار. في برد الصباح ابتلّت طرابيشنا من أثر رطوبة

الهواء، وسرنا غائصين في الرمال حتى بلغنا قيصرية.

قيصرية: لا يزال السور باديًا للعيان يمضي متّصلا، تبرز منه من مكان لآخر نتوءات تكسو النباتات بعضها، كثيرة العدد وبقواعد عريضة. خليج صغير وبقايا بنايات (أبراج) لعلها كانت تقوم هناك لحماية مدخل الميناء.

أخذنا قسطًا من الراحة عند العاشرة على شاطئ البحر، مستظلين بجرف صخري هناك. لم نر جبالًا خلال نهارنا كلّه، بل فقط مرتفعات ووهادًا يلي بعضها بعضًا، وإلى شمالنا رمال في رمال، تتخلّلها أشجار الخروب. مررنا برجل عاري الجسم أو يكاد، يتدلى من جسمه «برداشان»، ويحمل عصًا طويلة على كتفه. قبل وصولنا قرية أم خالد، وفيما نحن نخرج من أرض جرداء صهباء الأديم من أثر الأعشاب اليابسة تمضي مصعدة صوب الأعلى، تبدّى لأعيننا فجأة منظر سهل منبسط فسيح، تكسوه نباتات ذات خضرة شاحبة، يقاطعها في الأفق لون أشجار الزيتون الداكن، وخلف هذه تراءت كتلة جبلية. عند وصولنا إلى هناك رأينا امرأة ترتدي لباسًا أزرق وتحمل جرة على رأسها، كانت عائدة من نبع الماء الذي يقع أسفل القرية على شمال الداخل إليها. أشرنا إلى شجرة قرّرنا أن نبيت تحتها، لكننا وجدنا قافلة صغيرة قد سبقتنا إلى هناك. اخترقنا القرية حتى صرنا إلى جانبها الآخر، عند شجرة جميز عجوز، وأمامنا البغال بساستها وأحمالها، وخلفنا الخيول. إلى شمالنا اضطجع الشيخ محمد، دليلُنا لذلك اليوم، متوسّدًا عباءته وقد حول عمامته إلى اليمين من وجهه ذي الأنف المعقوف، ووضع بندقيته مستعرَضةً تحت أذنه. بالأمس كان حنا يعدو وراء حيوانات السلطعون، واليوم راح السادة رفاقي يتمازحون متبادلين الضربات بالأيدي والأرجل. في الصباح كان الرمل يحمل آثارًا لأقدام حيوانات متوحّشة.

بعد ليلة من السهر بسبب البراغيث تحت الجميزة وارفة الظلال، انطلقنا عند الفجر ميمِّمين شطر قرية علي أبو رامي في داخل الأراضي، عبر طريق برية تكسوها الحجارة وتنبت فيها أشجار الخروب.

علي أبو رامي: بقايا حصن إلى اليمين، تمضي الطريق بعده بمحاذاة البحر، وتتراءى

للسائر فيها كتلة طويلة من منازل يافا ذات الطوابق. رمال تغوص قوائم الخيل فيها، ومجرى ماء قطعناه خوضًا.

بلغنا يافا حوالي منتصف النهار. هناك خمسة مراكب راسية في الخليج. يمضي الداخل إلى المدينة صعودا، فيمر بمقبرة على منحدر من الأرض. قباب مستديرة فوق بعض البيوت. المقبرة في الواجهة وخلفها المدينة، وإلى الأعلى، جهة الشمال، أشجار تين شوكي وبساتين، في المكان الذي كان جيش نابليون بونابرت يعسكر فيه. دخلنا يافا دخولًا صاخبًا، وقطعنا المدينة كلها، عبر ممر ضيق بين الدور وسور تهدّم بعض جوانبه وسقط كثير من حجارته في البحر. نزلنا في خان أرمني، في حجرة من التي تخصص للنساء، حجرة صغيرة مربّعة بنوافذ من خشب. الأزقة تمضي صعودًا ونزولا، في حال من الاتساخ يصعب وصفه، وتعجّ بأصناف من القاذورات والنفايات. التقينا السيد م. ب. دامياني وأباه، وهما من ضباط سفينة ميركور، وخرجنا معهما في نزهة. مستشفى الجذام في يافا. دير أرمني ذو أقواس في الطابق الأول، ودير كاثوليكي لا يستحق الزيارة. أرانا السيد دامياني، عند أصل السور مما يلي الحدائق، مدخل النفق الذي سلكه جنود نابليون ليهاجموا المدينة. خان ظريف، تتوسط فناءه نافورة ذات تقاويس، وما بين كل قوس والذي يليه من الجهة الداخلية برج وهمي صغير أعلاه على شكل قُمع. تناولنا غداءنا في فندق يوناني، قدم لنا خمرًا قبرصية وسمكًا مقليًّا باردًا وزبيبًا. في المساء دخَّنا الشيشة في مقهى أسفل الخان الذي كنا ننزل فيه، ورأينا بضعة بحارة من سفينة ميركور.

يوم الأربعاء السابع من الشهر، تناولنا طعام الغداء عند السيد دامياني برفقة السيد هومان، نائب القنصل في يافا، ورجل بولوني هو القائم على محجر يافا الصحي.

انطلقنا عند الخامسة، على طريق رملية تتخلل شجيرات التين الشوكي، تماما كما الطريق عند مغادرة بيروت تتخلل أشجار الصفصاف. وجدنا نبع ماء مبني على منوال نافورة الخان، بتقاويس وأبراج وهمية ذات رؤوس على شكل أقماع، وقوس كبير في الوسط هو النبع ذاته، وخلفه ثلاث أشجار سرو. هناك مفترق طرق، ورجل يقف قرب النبع إلى

اليسار. السهل أمامنا منبسط، بتموجات خفيفة، مع حقل من السمسم بين الحين والآخر، ولون غالب يميل إلى الصفرة وإن تكُ صفرة قوية بعض الشيء تكاد من لمعانها تؤلم العين. السماء بالغة الزرقة بالغة الجفاف، لا ترتسم على صفحتها سحابة واحدة، وفي الأفق امتدت الجبال بكتلتها البيضاء. التقينا ببعض المسافرين، بينهم نساء (إحداهن زنجية بدين) يمشين سافرات.

الرملة، في منتهى السهل المنبسط، عند أقدام الجبال. سهل متصل. يلمح المسافر المدينة وهو ينزل من على مرتفَع من الأرض على شكل ظهر حصان. بعض أشجار الزيتون التي لا شيء مثلها يذكرك بأنك في فلسطين والأراضي المقدسة. شفافية عجيبة في الألوان: أرض رمليّة أرجوانيّة اللون، وسهل رمادي يشع منه لون ذهبي شاحب. مقبرة قبل بلوغ الرملة: قبور عريضة مبنية بالطوب، جعل ماكس حصانَه يسير فوقها.

الرملة: شارع خال من الناس، قباب تتخللها أشجار نخل نحيفة، ومنظر سماء الليل السوداء المائلة إلى الزرقة يتبدى من خلال كل ذلك، فوق الأشجار والمنازل المتهالكة. البنايات مشيدة بأحجار ضخمة، مما يشير إلى ما كانت تستعمل له من أغراض عسكرية. مررنا تحت قوس ذي شكل قوطي، قد ربط إليه حصان. بدت المدينة وكأنها شبه خالية. أقمنا مخيمنا أسفل المدينة، تحت أشجار الزيتون.

البعوض والخيل وترَقُّبي رؤيةَ القدس في اليوم التالي، كلها عوامل تضافرت لتجعل ليلي سُهادًا.

صباح الخميس: نزهة نهارية في الرملة. لا شيء خلاف ما رأيناه بالأمس. مدينة كبيرة مقفرة وقذرة. شاب أعرج يتبعنا ممسكًا بأعنّة خيولنا، وقد كان من بين حراسنا البارحة. أدركنا الأمتعة التي انطلق بها سائسو البغال قبلنا بساعة إلا ربع، وسرنا ثلاث ساعات كاملة قبل أن نبلغ سفح الجبل. قرية رُحاب، فلاحون يدرسون سنابل القمح. كلمني ماكس عن روث. حين اقتربنا من الجبال اعترض طريقنا رجل شيخ لا يوحي منظره بالثقة، بلحية بيضاء، يحمل على كتفه طرحة عريضة مقلمة بالأبيض والأسود، فجعل من نفسه

دليلنا لبعض الوقت قبل أن يفارقنا قرب منزل مبني بالحجر إلى شمال الطريق. الجبل عبارة عن سلسلة من الشعاب المتتالية، لا يخرج المرء من أحدها إلا ليدخل الآخر. أشجار زيتون رائعة الجمال، عتيقة مجوفة الجذع عريضته. الحجارة مليئة بالثقوب كأنّها قطع من الإسفنج، تنثر بلونها الرمادي بثورًا على خضرة أشجار الخروب ونوع من البلوط قصير القامة ينمو متكاثفًا. الأحجار تزداد عددًا كلما زادت الطريق صعودًا، ونور النهار يبيضُّ فيجعل الضوء المنعكس على الجبل الرمادي يكاد يعمي الأبصار من حدته. شجيرات وأشجار قد تركت عليها حيوانات البزاق خطوطا كآثار من جليد، لكن ذلك كان قبل بلوغنا الجبل. بين الحين والحين نمر بحقل زيتون، لكن الأشجار أصغر من سابقاتها. نجدٌ مرتفع.

بلدة قرية العنب وراء النجد، يجدها النازل إلى يمينه. بيوت من حجر، وبناية كبيرة كانت في ما مضى كنيسة. شاب بعمامة صفراء يبتسم لي عند مدخل الكنيسة المهجورة التي ولج ماكس إلى داخلها، قبل أن نعود لنمتطي صهوات الخيل.

اتّخذ حنّا سبيلًا إلى اليمين فسار تحت أشجار الزيتون مختصرًا الطريق، فيما سار جوزيف يخبّ مسرعًا دون أن يرفع رأسه. مجموعة من النساء يرقصن في دائرة. اتضح لي أن هناك ميتا يشيعونه. هتفت مناديا ساسيتي آمرا إياه بألا يتوقف عن المسير، فأعاد الأمر على أبي عيسى بلهجة فيها الكثير من الغلظة. سرنا متابعين النزول لبرهة. في أعلى هذا المرتفع الذي يشبه قُمعًا مقلوبًا تقوم بعض الأبراج القديمة. عدنا نمضي مصعدين من جديد، وكلما تقدمنا في السير ازدادت الأرض جفافا وصلابة، حتى إذا ارتقينا المرتفع وعدنا ننزل من الجهة الأخرى تعيَّنَ علينا أن نترجّل عن خيولنا لأن الأرض أصبحت عبارة عن بلاطات كبيرة زَلِقَة. كذلك هو الجبل قبل البلدة، وخصوصا في الأسفل: خط من الحجر يمثل طبقة الكلس، يليه خط أخضر حيث الأرض، والخطوط تمضي هكذا في تواز مع المنحدر. وأخيراً، وقد بلغ منا الجوع والإجهاد كل مبلغ، انتهينا إلى واد أخضر مكسو أشجارا يجري فيه الماء، ورأينا هناك جسرًا.

جزاير الكروم: بستان وأشجار ليمون ودالية. أمدتنا أسرة يهودية ببعض البُسُط

افترشناها. نساء بقبعات واقيات من الشمس، أو قل إنها واقيات من الشمس على شكل قبّعة. زوجة الرجل الذي تصرّف معنا بشكل مهذّب لائق جالسة في ركن، تظهر حلمتا ثدييها من انفراجة ثوبها فيما هي ترضع صغيرها. نمنا لساعة تحت إحدى أشجار الليمون ثم قمنا فغسلنا وجوهنا عند الجسر وركبنا عند الساعة الثالثة.

مضينا صعودا لنحو ساعة أو تزيد. بلغنا أعلى النجد، فتبدت لنا الجبال بلون كلون غبار الخشب، مائلٍ إلى الحمرة الداكنة، أو قل كلون المِلاط. أنتظر في كل لحظة عبثًا أن تتبدى القدس لناظري. الطريق (تميز العين آثار طريق قديمة كانت تمر من هناك) وعرة لا مجال لأن يسير فيها الفارس خببًا. حائط من أحجار جافة يحيط بمساحة من الأرض وسط تلك البقاع الجرداء. وأخيرا، عند منعطف من حائط، رأينا ساحة فيها أشجار زيتون. رأيت ضريحًا ولا شيء آخر هناك، وسرت قليلا فالتقيت برجال من العرب شرعوا يلوحون لي بأيديهم أن أَسرِع وهم يرددون: القدس! القدس! سبع وعشرون امرأة يرتدين ملاءات زرقاء، يبدو أنهن عائدات من السوق. ثلاث دقائق بعد ذلك، القدس.

ما أنظفها من مدينة! الأسوار لا تزال كلها قائمة. تصورت السيد المسيح خارجًا منها متجهًا صوب جبل الزيتون. كأني أراه يعبر البوابة التي أمامي، فيما انتصبت جبال الخليل HEBRON خلف المدينة إلى يميني، هفهافة كأنّها من بخار. أما في ما عدا ذلك فكل شيء جاف قاسٍ يغلب عليه لون الرماد. وأما ضوء النهار فبدا لي من فرط بياضه وحِدَّتِه كالضوء في يوم من أيام الشتاء، وذلك رغم الحرارة التي تشع من الألوان، في مفارقة عجيبة لم أدرك لها كنها. لحق بي ماكس مع الأمتعة، وكان يدخن سيجارة. حوض القديسة هيلانة، مربع كبير إلى يمين السائر.

اقتربنا من المدينة حتى كدنا نبلغ الأسوار، وما منا أحد إلا ويحدث نفسه أن ها هو الحلم قد تحقق أخيرا. جاء السيد ستيفاني يحمل بندقيته على كتفه يدعونا إلى المقام في نُزُله. دخلنا من باب يافا، فأفلتُّ ريحًا دون قصد مني. سرنا بحذاء سور الدير اليوناني، في أزقة تمضي مصعدة، نظيفة مقفرة، حتى بلغنا النزل. زيارة السيد بوطا. نمنا باكرًا.

الجمعة، جولة في المدينة. كل شيء مغلق بسبب رمضان. صمت وكآبة يخيمان على المكان. المجزرة، ثم دير أرمني، ثم بيت بونس بيلات الحاكم الروماني على عهد المسيح. السراي، ومنه يبدو مسجد عمر بن الخطاب. بدت لي القدس أشبه ما تكون بقبر جماعي محصن. هنا تذوي الأديان القديمة وتتفسخ في بطء. يمشي المرء فوق القاذورات ولا يرى أمامه إلا أطلالا: كآبة وحزن لا مثيل لهما.

الجمعة 9 غشت / آب، عند الخامسة عصرًا، قمنا بجولة في القدس. مررنا بنزل تَدمُر في طريق عودتنا من عند السيد بوطا، حيث التقينا ببعض السادة من الألزاس.

الأحد، 11 غشت / آب 1850. ها قد مضت علينا ثلاثة أيام ونحن في القدس، ولم يطرأ شيء مما كنا نتوقعه من انفعالات وطفرات وجدانية. فلا حماس دينيًّا هناك ولا إثارة للخيال ولا حتى كراهية للقساوسة على الأقل. أشعر كأني، أمام كل ما أراه، أشبه ببرميل فارغ أو أفرغَ منه. وأنا أقف أمام القبر المقدس هذا الصباح، لم أشعر في قرارة نفسي بأدنى انفعال، بل لو وقف كلب في مكاني لكان أكثر مني انفعالا. فلمن يعود الخطأ في هذا يا إلهي؟ أإليهم أم إليك أم إلي؟ إليهم فيما أعتقد، ثم إلي، ثم إليك على الخصوص. ثم ما أشد ما يبدو كل هذا مزوّرًا مصطنعًا! ما أكذَبَهم، وما أشد ما كل ما هنا مقَنَّع مغشوش مدلَّس لا غرض منه ولا غاية سوى الاستغلال والدعاية والربح! القدس قبر جماعي يحيط به سور. كان أول ما رأيناه من المدينة المجزرة. مكان كالمربع، تغطيه جلود الحيوانات وغيرها من القاذورات، في وسطه حفرة، وفي الحفرة دماء متجلطة وأمعاء مسودّة ومحتوياتها، قد أحرقتها الشمس أو كادت. كان المكان نتنًا ومتّسخًا، وكما كان يقول أحد الظرفاء، فإننا «حين دخلنا المدينة المقدسة كان أول ما رأينا فيها هو الدم».

كان كل شيء صامتا، فلا صوت يُسمع ولا أحد يمشي في الطرقات. وبين الفينة والأخرى، على امتداد السور، يخلي لنا الطريق يهودي بولوني طويل القامة وافر اللحية، بقبعته المصنوعة من فرو الثعلب. أمّا الأسواق فمغلقة. إنه رمضان، مما يعني أعدادا من طلقات المدافع تحدّد أوقات الصلاة والأكل والإمساك على طول نهار المسلمين وليلهم. واجهات المتاجر تغطيها

طبقات من الغبار، وبعضها متهالك يكاد ينقضُّ أرضا، والواجهات كلها لها واقيات، وهي رفيعة عالية، تمضي في تراصٍّ يروق للناظر.

ما من شيء في القدس إلا وله قوس أو قبة. وأنت تمضي في الأزقة لا تعدم أن تمرّ تحت نصف قوسٍ عتيقٍ أو حتى ربعه. فالناس بنوا هنا بيوتهم على أساسات البنايات القديمة وما بقي قائما منها، ما جعل أعدادًا من الأقواس وأنصافها تطل من كل جانب. وإذا ما استثنينا جوانب الحي الأرميني المكنوسة النظيفة، فكل أحياء المدينة متسخة أيما اتساخ. بلاط الأزقة لا تكاد الخيل تستطيع السير فوقه، وفي الزقاق الذي فيه نزلنا هناك جيفة كلب أصفر تتحلَّل رويدًا دون أن يفكر أحد في دفعها بعيدا، أما القاذورات عند أصل الحيطان فلا يحيط بفظاعتها وصف! بيد أن بقايا البطيخ أقل منها في يافا.

أطلال حيثما وليت وجهك، وإحساس كئيب يتملّكك من أثر شعورك بأنك تتجوّل في مقبرة. مدينة مقدسة عند ثلاثة من الأديان، لكنها تموت رويدًا من ملل ومن سقم ومن إهمال. بين الحين والحين يمر أحد الأرناؤوط مدجّجًا بالسلاح. الأزقة الخالية تمضي في انحدار، والشمس في عليائها تطل على الخرائب، وثقوب كبيرة في الجدران. ومثلما هو الحال في يافا وصيدا وصور من قبل، كان هناك أطفال على درجة كبيرة من الجمال، وخصوصا منهم الفتيات الصغيرات، بوجوههن الشاحبة وشعرهن الأشعث. دليلنا يوسف، مراهق في الثامنة عشرة أو العشرين، بعينين سوداوين وقوام أنثوي، خجول يتضرّج وجهه حمرة لأدنى سبب. الجنود الأتراك، وكذلك الباشا، مغرمون جميعهم به، يهتفون به كلما مر حذاء الأسوار: «الخواجة يوسف! الخواجة يوسف! تعال إلى هنا!».

الدير اليوناني واسع فسيح، نظيف وجيّد البناء، به عدد وفير من الباحات والشرفات والسلالم. بنايات مخصصة للرهبان وأخرى للحجاج. يبدو أن الأرمن يتمتعون هنا بما لا يجدون مثله في غير هذه البلاد. هناك الكثير من الأشياء التي لا لزوم لها، اللهم إلا إظهار البذخ، مثل السواتر الحديدية المقامة على طول الشرفات. أما الكنيسة فيُدهش الداخل إليها مما تنطق به من بذخ وما تحتويه من نفائس. إسفاف وفساد ذوقٍ بلغا هاهنا منتهاهما. فهل

يا ترى يكفي لجعل الشيء جميلا أن نبالغ في تزيينه ونفرِط؟ تبّاً لمن لا يدرك معنى الإفراط!

الجدران مكسوة بالخزف الأزرق بقامة رجل، وأعمدة مربعة المقطع. إلى الشمال مصلى القديس جاك، وهو عبارة عن دائرة تحيط بالمكان الذي قطع فيه رأسه، وتحت المذبح المحاط بالأزهار والمشاعل تبدو من خلال الزجاج رأسٌ مقطوعة. المذبح يحتل أقصى الكنيسة، وهو مزخرف بالذهب، وله ثلاثة أقواس أكبرها في الوسط. رسومٌ أغلبُها رديء لبعض الآباء الأوائل، فوقها أخرى تصور محطات من حياة السيد المسيح، من بينها صور للعذراء المقدسة تحمل الصبي، كلها مفضّضة. والصور جميعًا في إطارات من المعدن، تحمل إحداها في أصبعها خاتمًا ذا ماسة حقيقية. لوحة للشهداء، يبدو فيها راجمو القديس إيتيان وقد أفرط الفنان قصدا في رسمهم أناسًا في منتهى القسوة، وكأنه بلسان حاله يقول: هؤلاء هم الأشقياء! إلى جواره أسد يفترس قديسا لم أعرف من هو. صورة جميلة، يبدو فيها فم الأسد أكبر من بقية جسده. رسم آخر للقديس لوران وهو وسط ألسنة نار قد بالغ الرسام في تصوير لهيبها. ومن الجهة التي تلي الباب رسم لمذبحة الأطفال الأبرياء، أو لنقُل إنه محاولة لرسمها، يظهر في جانبها طفل صغير يسلم الروح وهو يتقيأ.

كلما ازداد المرء إمعانا في تفاصيل هذه الكنيسة تضاءل الشعور الأول الذي اعتراه وهو يدخلها أول مرة. ولئن كان هنري هاين في قوله «إن الكاثوليكية ديانة صيفية» قد أصاب كبد الحقيقة، فإني أرى من ناحيتي أن هذا القول مرتبط بالعصور الوسطى، والعصور الوسطى مرتبطة في ذهني بفكرة المطر والضباب. فيا كنائس بلادي ذات الجدران المخضرة من أثر الرطوبة، كم أحبك! من وجهة نظر الدين الصرف ليست هذه بلادنا، ولقد عاد مارتن لوثر إلى بلاده بروتستنتيا من إيطاليا بلاد البابا ليون العاشر.

في كنيسة القبر المقدس اليونانيةِ ثمة الزخرفةُ والزينة ذاتها. مشهد لطيف، بفتحة تضيء الكنيسة كلها، ونساء في ثياب بيضاء، ورجال بقمصان وعمائم ملونة، ومجموعات من الناس تقف مولية الوجوه صوب المذبح، وبطريرك بلحية بيضاء، ويونانيون يَلثمون مشاهد آلام السيد المسيح المرسومة على الجدار الذي يفصل بين الكنيسة وبين المذبح. الكنيسة الأرمينية

ذات زينة فيها الكثير من خصوبة الخيال. أكاليل من بيض النعام المصبوغ تتدلى من السقف، وإلى شمال الباب مقرعة برونزية وضعت هناك لتحلَّ محل الجرس.

في الشارع المؤدي إلى بيت الحاكم بونس بيلات في حارة عطا، يقع بيت فيرونيكا، وهو يقوم على يمين النازل في المنحدر، بيت قصير بباب صغير غارق في الأرض حتى منتصفه مثل باقي البيوت هناك. أما بيت بيلات فكبير يتخذه الجيش معسكرا، وهو المعروف باسم السراي. سطحه يطل مباشرة على مسجد عمر المقام في مكان المعبد القديم.

في صباح اليوم التالي استيقظنا عند السادسة صباحًا لنشاهد اليهود وهو يكون عند الجزء الباقي من أسوار المعبد. والأسوار عند قاعدتها مبنية بحجارة ضخمة مستطيلة تذكر بأهرام مصر بضخامة حجمها ودقة تقطيعها، منحوتة الجوانب على شاكلة الإفريز الذي يحفره النجار حول مصراع الباب. عجوز يهودي في أحد الأركان، يجلس القرفصاء حافي القدمين موليًّا ظهره للسور ملقيًا طرحة بيضاء على رأسه، وهو يرتل من كتاب بين يديه ما لست أدريه من الآيات، مطوِّحًا بجذعه جيئة وذهابًا. من الجهة الشرقية تجد البناء نفسه والسور ذاته. حين غادرنا المكان التقينا ببعض اليهود الآخرين الذاهبين دون شك إليه. حلقت شعري عند مزين لم يكف عن الضحك وهو ينظر إلي، دون أن أدري سبب ضحكه، وقد حلق لي بالماء الساخن. ثم ذهبنا إلى أحد المقاهي حيث دخّنا الشيشة، ومن وراء المقعد الخشبي الطويل الذي كنا جالسين عليه، رأينا حوضًا مربّعًا (حوض حزقيال) مليئًا بماء أخضر آسن، تحيط به جدران تنفتح فيها كوة من مكان إلى مكان، هي الجدران الخلفية للمنازل المحيطة بالحوض.

عند العودة إلى الفندق قرأت قصة آلام السيد المسيح في الأناجيل الأربعة. تلت ذلك قيلولة، ثم عشاء عند السيد بوطا. رجل كالطلل يقيم في بيت كالطلل في مدينة الأطلال، لا يؤمن بشيء، ولا يكاد يحب أحدًا خلا الأموات؛ يتمنى من الأعماق لو عاد الزمن به إلى القرون الوسطى، ويبدي إعجابًا بالسيد دو ميستر. يتعلم الآن العزف على البيانو ويعترف بأنه لا يتعمَّق في الأمر بل هي مجرد مرحلة من مراحل حياته. تعب من المحاولات (كانت

حياته سلسلة متواصلة منها، إذ كان طبيبًا وعالم طبيعة ومنقّبًا عن الآثار وقنصلاً)، ويريد أن تكون هذه هي الأخيرة. «لتكن البشرية مثلي»: هذا ما يقوله أولئك الذين عجزوا إما عن السيطرة عليها أو عن فهمها. أما حاجبه، وهو رجل نيو كاثوليكي من أنصار الموسيقى الجادة، فلا يعرف من الموسيقيين الكبار هيمل ولا سبور ولا مندلسون، بل أمطرني بوابل من مقاطع هاندل لم أطلبها منه، ناهيك عن يده اليمنى التي تسبق اليسرى. والخلاصة أنهما معًا رديئان تافهان.

القبر المقدس: يوم السبت، زيارة إلى القبر المقدس. أثار المنظر الخارجي انفعالنا بمظهره الروماني، لكن الداخل يخيب الظن من وجهة النظر الأركيولوجية. مفاتيح المكان في أيدي الأتراك، ولولا ذلك لتناحرت الطوائف المسيحية فيما بينها من أجله. الحرس ينامون في الداخل قرب الباب، على سرير موضوع هناك. ومن شاء أن ينظر إلى داخل الكنيسة حين تكون مغلقة (وهي مغلقة على الدوام ما عدا أيام الآحاد)، فما عليه سوى أن يحشر رأسه في أحد الثقوب المحدَثة هناك لأجل هذا الغرض. فإذا فعل تبدَّت لعينيه صخرة المَسح تحت القناديل، وكذا الحراس الأتراك الجالسين على سريرهم، فيبادلهم الحديث. رأينا داخل الكنيسة صاحبنا الإيطالي اللاجئ الذي اعتكف هناك (وإن يكن اعتكافا مؤقتا)، «استلهاما لشعرية المكان» كما ادعى. فيا له من فنان! أما أنا فلا أراه إلا وغدا انتهازيا متطفلا يستغل طيبة الرهبان ليقيم لديهم ما استطاع من الوقت دون مقابل.

شيء أثار انتباهي أكثر من غيره مما في المكان، هو لوحة تمثل الملك لويس فيليب واقفا، تزين داخل القبر المقدس. يا للتنافر البشع! أأنت إذاً كالشمس، تضيء العالم ببهائك حتى داخل قبر المسيح ذاته؟ ما يثير الانتباه كذلك هو الفصل التام بين الكنائس، فهنا اليونان وهنا الرومان وهناك الأقباط. كل حيز مفصول عن صاحبه، وكل فريق يكره صاحبيه أكثر مما يكره أي شيء آخر في الوجود. اجتمعت اللعنات المتبادلة بينهم على مر السنين فنزلت عليهم جميعها في آن. اعتراني إحساس بالازدراء والبرود جعلني أغادر المكان دون أن أفكر في أي شيء. سأل أحد المسيحيين ترجماني إن كنت أنا الباشا، رغم أني - وقاني الله شر الكبرياء - كنت أمشي في تواضع وهدوء، لا أعير انتباهًا لشيء مما حولي. أجل،

طوبى لمن سالت عَبراتهم خشوعًا في هذا المكان، لكن ما أدراني ما كانت عليه خيبة الأمل في القرون الوسطى، وما كان حجاج ذلك الزمن يستشعرونه من مرارة حين يعودون إلى بلادهم فيسألهم السائلون في لهفة أن يخبروهم عما رأوه هناك...

يقول المثل العربي: «خذ حذرك من الحاج» الحجاج الأرمن يتعرضون للطرد من كنيستهم إن هم تكلّموا بعد رجوعهم عما رأوه، لأن من شأن ذلك أن يثني الآخرين عن الحج (ميشو وبوجولا)[1]. والحق أني لو كنت معنيًّا وأحسست بخيبة أمل لحاسبت عليها نفسي لا هذا المكان.

في طريق عودتنا توقفنا قليلًا عند مدخل كنيسة بروتستانتية. رجال متّشحون بالسواد يقتعدون مقاعد طويلة، وآخر بوشاح جالسٌ على مصطبة في أحد الأركان يقرأ الإنجيل. المكان يشبه مدرسة ابتدائية أو قاعة انتظار في محطة قطار. أفضِّل كنائس اليونان والرومان والأقباط وحتى مساجد الأتراك أو رهبان المجوس أو أي شيء آخر! وداعًا وأسعدتم مساء! كفى! لنخرج من هنا! لم نبق هناك لربع دقيقة، لكن هذا كان كافيًا لأصاب بملل عميق صادق!

بعد الظهر انطلقنا أنا ويوسف وساسيتي واثنان من البغّالين في جولة قادتنا إلى مقبرة ملوك إسرائيل وجبل الزيتون وسلوام[2] وبيت قيافا.

مقبرة الملوك تقع إلى الغرب من المدينة. يدخل إليها الداخل عبر ما يشبه مغارة مفتوحة الجانبين. فتحة إلى الشمال يضطر المار منها إلى أن يحني جذعه. المقبرة عبارة عن طابقين اثنين من الحجرات التي تنفتح في جدرانها كوى تحمل أجداث الملوك. مداخل الحجرات صغيرة مربعة، وهناك في كل حجرة ثلاث كوى في الغالب، واحدة في الوسط واثنتان على الجانبين. وإلى جانب كل كوة تنفتح ثقوب صغيرة على شكل أهرام محفورة في الصخر، جعلت هناك

---

(1) هما ناشرا موسوعة Mémoires pour servir à l'histoire de France، وهي مجموعة من 32 كتابا، تم نشرها ما بين 1836 و1839، وتحوي تاريخا للحروب الصليبية هو الذي استُقِيَ منه ما يرِد هاهنا.

(2) هو حي سلوان اليوم.

لتوضع فيها القناديل. المنظر في عين من رأى مصر ليس فيه ما يستحق الإعجاب، بل هو عمل قاطع أحجار ماهر لا أقلّ ولا أكثر.

بستان جبل الزيتون. مساحة صغيرة يحيط بها سور أبيض عند سفح الجبل الذي يحمل الاسم نفسه. ريح قوية تجعل أوراق الزيتون ذات اللون الشاحب ترتعش. الهواء فظّ خشن رغم الحرارة المرتفعة، أمّا الطريق فبيضاء، وأمّا السماء فذات زرقة شرسة. ومن أعلى المنارة التي تشرف على جبل الزيتون يرى الرائي مدينة القدس تمتد أمامه، بمبانيها التي تتوالى متراكبة على سفوح الهضاب كأنّها مدرجات مسرح يمتد من الغرب إلى الشرق مائلا ناحية المقابر، مما يلي وادي جزفة، الذي يتغير اسمه في ما وراء نبع سلوام فيصبح قدرون. في مسجد الصعود، جاء رجل عجوز طويل الأنف، يرتدي ما يشبه معطفًا أصفر، ففتح لنا الباب، حيث شاهدنا قطعة من الحجر محاطة بإطار من الحجر كذلك، يرى المؤمنون أثرًا لقدم السيد المسيح مرتسمًا عليها، حيث يعتقدون أنه من هنا انطلق صاعدا صوب السماء. في المساء ذهبنا في زيارة عند باطا فوجدنا عنده كبير قساوسة الرومان.

الاثنين. انطلقنا عند السابعة والربع صباحًا نقصد بيت لحم. الطريق طيبة حتى دير إيليا. في الدير لا شيء سوى أنواع من المربى والقهوة ورجل طيب من الرهبان اليونان، يبدو سعيدا بسياسة مكسيم إزاء البروتستانت، هؤلاء «اليهود المتنصرون الذين صار يُخشى أن يبسطوا سيطرتهم على القدس».

من هناك إلى بيت لحم، أرض جبلية مكسوة بالحجارة. من حين لآخر نمر بنساء من البلدة يرتدين لباسًا مقلّمًا بمربع صغير ملون على الصدر. الفتيات هن اللائي يعتمرن وشاحًا مزيّنًا بقطع فضية، أما النساء فيغطين رؤوسهن بقبعة طويلة الجانبين تغطي الأذنين. الجبهة تغطيها صفوف من القطع النقدية الواحدة فوق الأخرى، ومن الخلف تتراكب صفوف أخرى تتدلى منها صفائح معدنية كبيرة مربوطة بخيوط. أمّا أعلى القبعة فعلى شكل كعكة، يحيطها الأغنياء بسوار من الفضة.

بيت لحم: بلدة كبيرة مبنية بالحجارة، أمامها وادٍ أو قل إنه شعب كبير تؤدي إليه وتخرج

منه شعاب كثيرة أخرى. الدور مبنية بالحجارة، وهي قوية البنيان، والناس هناك يستعملون المسجة كثيرا في دلك الطين وتسويته. في مدخل البلدة نساء عند البئر يجلبن الماء وسط عدد من الإبل، وعلى شِمال الداخل منظر مريع للمكان الذي تجتمع فيه فضلات المجاري، وغير بعيد عن هناك كانت مجموعة من النساء ينشدن وهن ينتحبن. وقد علمنا بعد ذلك أن الأمر كان يتعلق بدفن ميت، وجدناهم يقيمون قداسا على روحه في الكنيسة الأرمنية حين بلغناها. للكنيسة سقف خشبي، ويفصل قسمها الأول عما يليه جدار. الأعمدة أسطوانية وتيجانها مزينة بأوراق أقنثة مصبوغة قبيحة المنظر. صفان من الأعمدة من كل جانب، وإلى الأعلى بقايا فسيفساء لم تعد تَبِين. وكما الحال عند القبر المقدس هناك الأرمن في المصلى الأول على يسار الداخل، واليونان في المصلى الكبير في الوسط والصغير إلى اليمين، والرومان في مصلى معزول عن الآخرين وفي حال من الرداءة لا يستثنى منها إلا مغارة القديس جيروم، وهي مظلمة تكاد تكون عارية من أي زينة.

الكنيسة اليونانية: رافد المذبح من خشب منقوش نقشا عميقا ومذهب، وكذا الباب الأوسط. وبين كل عمودين من أعمدة الرافد لوحة، ويظهر على إحدى اللوحات القديس يوحنا واقفًا يحمل في يده طبقًا يتوسّطه رأسه المقطوعة. فهل في الأمر تأليه للقديس؟ وهل لذلك جعلوه بأجنحة في هذه اللوحة كما في غيرها؟ القسم الأعلى من الرافد، الذي يمثل الطبقة الثانية منه، يحمل لوحات أصغر، تمثل محطات في حياة السيد المسيح. وعلى ساتر قريب من الأرض وضعت لوحات أخرى من الحجم نفسه مثبتة على أعمدة صغيرة، جعلوها هناك ليلثمها المصلّون.

في ركن إلى يسار الواقف قبالة المذبح لوحة تمثل إبراهيم وإسحق. في صدر اللوحة إلى اليمين يظهر إبراهيم متضرعا إلى الله، وإلى اليسار يمشي وبجانبه إسحق، متجهَين دون شك إلى مكان التضحية، والحمار يحمل الحطب ويسير خافضًا رأسه، لست أدري هل يفعل ذلك كي يسرع في سيره أم يفعل ذلك كي يقضم من العش قضمات أثناء سيره؟ في وسط اللوحة إسحق يحمل الحطب بنفسه فوق ظهره وإبراهيم يحمل السكين في يده، وفي الخلفية إسحق [إسماعيل] مضطجعًا وأبوه على وشك أن يذبحه، فيما خروف مربوط بحبل إلى جذع شجرة

بالقرب منهما، وإلى الأعلى يظهر الملاك، ويبدو أنه قد نادى إبراهيم لأن هذا ملتفت نحوه. في كل الصور يحيط قرص ذهبي برأس إبراهيم وإسحق، باستثناء هذا الأخير حين يكون مضطجعًا وأبوه يستعد لذبحه.

هناك لوحة أخرى من النوع نفسه، إلى اليمين من مدخل حجرة المذود، قرب المصلى اليوناني: في وسط اللوحة التي على شكل نصف كرة، تظهر السيدة العذراء وروح الحبل المقدس تنزل عليها من السماء في شكل لسان طويل من نار، يحمل في طرفه قرص القداسة المستدير. وفي منتصف صدر العذراء صوِّر المسيح رجلا بالغًا، مفرّجًا ذراعيه مثل والدته، يقف على ثنية ثوبها الذي يمضي منثنيًا من ذراع إلى أخرى. ويحيط بصورة العذراء قرص قداسة يتلألأ. وأعلى لسان الروح صورة للأب تحيط بها صور الآباء والأنبياء ينظرون جميعًا إليها فيما هي تَنَزَّل على مريم. تمثل هذه اللوحة محطات من حياة السيد المسيح، وإذا كانت صورة العذراء في وسطها فلا علاقة لها بطبيعة الحال بما ترويه الصور الأخرى من أحداث.

قرب المصلّى الثالث أو المذبح الثالث، أي كنيسة اليونان، هناك عذراء بيزنطية رائعة الجمال تحمل الطفل بين يديها، والأماكن المغطاة باللباس من جسدها مكسوة بقطع من الديباج المرصع بعدد من الأحجار النفيسة. رأس العذراء مغطى بحجاب أسود ينزل فيحيط بوجهها من مثل ما تلبسه نساء هذه البلاد، تزينه خطوط من الفضة. ومن تاجها يخرج، في إضافة من الزينة لا ضرورة لها، ذيلٌ يشبه ذيل الطاووس، تزينه أعين بيضاء وزرقاء، بعضها يتقاطع في حدة مع محيطه، وجميعها تطلّ منها رؤوس أطفال ملائكة.

حجرة المذود: درجان متشابهان من رخام مائل إلى اللون الوردي. عشر درجات للصعود من مدخل الكنيسة إلى الحجرة، وستة للصعود من الكنيسة ذاتها إلى باب الحجرة، على سلم يتخذ شكل نصف دائرة. الباب روماني، مع قوس خفيف، بزوج من الأعمدة البيضاء من كل جانب، وإلى أعلى الباب من جهة اليمين لوحة تبين السيدة العذراء تحمل الطفل، وملامح هذا الأخير مزينة بالذهب. لكن ليس هناك ما هو أكثر روعة وأبعد أثرا في الروح من مدخل الحجرة من جهة الشمال، حيث يضيع البصر بين أنوار القناديل التي تضيء

العتمة، والتي تمضي في صفين إلى اليمين وإلى اليسار وعلى الجدار المقابل للمدخل.

في مكان ولادة السيد المسيح خمسة قناديل منيرة، يحميها سياج من حديد، وضوء القناديل يعمي الأعين عن رؤية لوحة تمثل الميلاد في أقصى المكان، يحيط بها إطار من فضة. أمّا المكان الذي سجد فيه الملوك المجوس للمسيح فهو على شكل هلال يضيئه ستة عشر قنديلاً، في فجوة من المكان تشبه المحراب. وعلى الأرض كانت تشير إلى موضع ولادة السيد المسيح نجمةٌ قلعوا عنها ما كان يزينها من ذهب. بعض تلك القناديل موضوعة في كؤوس زجاجية خضراء، وفوقها بيض نعام أعلى المكان المعلقة إليه الخيوط التي تحمل القناديل، والتي تتشابك في السقف. كل هذا مغطى بثوب من جوخ الهند. بقيت أمام المنظر مأخوذا بسحره الذي كان بالفعل أخّاذًا، بجمال يحمل شحنة روحانية قوية. كانت بعض المصابيح مطفأة! حتى مصابيح سجود الملوك المجوس كان أحدها مطفأ!

غداء عند عِيسى، أحد أقارب كسنة. اشترينا بعض المشغولات التعبديّة. على بعد نصف ساعة من بيت لحم تقع حدائق سليمان (بلدة أورتاس). منظر جميل لهذه الواحة الصغيرة الممتدة صوب الجنوب، وسط هذه الشعاب الرمادية المليئة أحجارا، والتي ليست سهوب لوكرو الفرنسية شيئًا بالقياس إليها.

أحواض سليمان: ثلاثة أحواض، في ثانيها قليل من الماء والثالث مليء إلى منتصفه، داخلها مبلط بالإسمنت، وقاعها مربع، تتتابع في ثلاث طبقات على طول الأسوار، وينزل إليها النازل عبر درج هناك ملاصق للسور. منظرها يجعلك تفكر في فتيات إسرائيل وهن ينزلن هناك لجلب الماء حاملات جرارًا كبيرة.

قرية بلا اسم. داخل حصن تركي قديم يزعمون أنه هو أيضا من بناء سليمان. ليس هناك من شيء تقريبًا عدا أطلال مراحيض قديمة متهالكة. لم نرجع عبر بيت لحم. فارقنا عيسى فاتخذ سبيلًا إلى اليمين. عن شمالنا خضرة أشجار الزيتون التي تملأ أحد الشعاب وتخرج من جانبيه في منتصف المنحدر. عرب على جمالهم بقمصانهم البيضاء وصدورهم المفتوحة، شبه عراة يترنحون على ظهور رواحلهم. السائر منهم في المؤخرة رجل زنجي. لم نلتق أحدا بعد

ذلك، خلا قطيع من الجمال كانت تسير صفًّا بلا أحمال ولا لجام، فلما بلغت المنحدر انفرط عقدها. زرقة السماء الصافية الحادة تتراءى من بين قوائمها المتصلبة بطيئة الحركة. وعلى آخر جمل منها استوت امرأة تحمل أمامها طفلة صغيرة، بخمارها المزين بقطع فضية. ترجّلتُ وحدي عند المكان الذي يقال إن السيد المسيح صلّى فيه مع حوارييه قبيل الصلب، ثم عدت إلى صهوة حصاني وواصلنا الطريق جميعًا حتى دخلنا من باب يافا.

الزيارة الثانية إلى القبر المقدس. عند المدخل صخرة المسح، وهي من رخام وردي مجزَّع، يحيط بها إطار من الحجر نفسه، في أركانه الأربعة كرات من النحاس، وعند كل من الطرفين ستة شمعدانات، وفوقه سلسلة علقت إليها ستة مصابيح زخرفت أغشيتها بضربات مقص وزينت برسوم زرقاء وخضراء، تبدو من بعيد وكأنها قناديل صينية. على الجدار الذي يقابل الداخل، فيما وراء الصخرة، علقت لوحات منسوجة تحكي معجزات المسيح الكبرى.

القبر المقدس: قبة مجصصة، تحملها ثمانية عشر عمودا مربعا، وتزينها لوحات رديئة تستثير الشفقة. في أسفل القبة المتهالكة مصلى صغير مربع، في أقصى طرفها إلى الخارج المذبح القبطي. والداخل إلى المكان يخلع نعليه تبعًا للعادة الإسلامية المتبعة هناك. الجندي الانكشاري الذي يرافقنا يهش على المتسولين بعصاه، والحق أن هؤلاء ثقلاء لا يُحتملون. يضرب شيخا أعمى بقبضته. شاب طويل القامة يرتدي سترة حمراء بدا لي أنه يعاني مللًا شديدًا. بين عمودين من أعمدة القبة رأيت مطبخ حراس القبر المقدس، الذي يجدهم الزائر جالسين على أريكة عند المدخل. كانوا يغسلون الأطباق، وفي ركن من المكانِ ثمة الموقدُ حيث يطبخون طعامهم ويعدّون القهوة. في دير الرهبان الرومان، وهم الكبوشيون في الأرض المقدسة، وجدنا مرافقنا الانكشاري جالسًا يشرب فنجانًا من القهوة مع القساوسة.

هناك حجرتان، يحمل سقف أولاهما اثنا عشر عمودًا من الرخام الأبيض داخلة في الجدران. وعلى مقربة من الباب فتحة سلم ضيق يقود إلى سطح البناية. والحجرة مضاءة بخمسة عشر قنديلًا، خمسة منها للرومان وخمسة للأرمن وخمسة لليونان. وفي الوسط، على حامل مربع من الرخام الأبيض، وُضِعت قطعة من الحجر هي كل ما تبقى من الباب الحجري

الذي كان يسد مدخل القبر الحقيقي. أما الحجرة الثانية فتعبق برائحة صلاة القربان الأولى، تتدلى من سقفها أعداد من القناديل متزاحمة تجعلها تبدو أشبه ما تكون بمتجر بائع مصابيح، ثلاثة عشر منها للأرمن ومثلها لليونان ومثلها للرومان وأربعة للأقباط. أمّا الشمعدانات التي تحيط بالمكان فأربعة منها فقط مشتعل. اقتصادًا في استهلاك الزيت!

على صفحة الجدار الواقع في مقابل الداخل صورة منحوتة في الجدار مثقلة بالألوان تمثل السيد المسيح، يحيط بها مشهدان للصعود والبعث. والرسوم كلها تنم عن ذوق عتيق من القرن الثامن عشر لا جمال فيه. وفي أصص صغيرة من الخزف وُضعت زهور وردية في لون الكشمش أو «عنب الديب» الذي ينبت في جنوب فرنسا. حجر القبر من رخام أبيض، يحمل بعض بقع الزيت وبه شق كبير في منتصفه، وفي أقصاه صوان صغير توضع فيه الشموع الصغيرة التي كان الزوار يضعونها لصق الجدار، وقد أشعلنا بعضها مثلما فعل غيرنا. أخذ الكاهن زهرة فألقاها على بلاطة الرخام وغمرها بماء الورد ثم أعطاني إياها. كانت لحظة من أشد اللحظات مرارة، ولو كان في مكاني رجل مؤمن لكانت لديه أحلى من العسل! فما أكثر البائسين الذين يودون لو كانوا مكاني، وما أفدحها خسارة في حالي أنا، وما أشد ما أستشعر خواء كل هذا وتفاهته وأشم روائحه!

جاءت امرأة تقارب الخمسين من عمرها، نحيفة الجسم دميمة الخلقة شاحبة الوجه، فوقفت هناك وجعلت تصُكُّ صدرها الأعجف بيديها المعروقتين النحيلتين.

في الجهة المقابلة، كانت الكنيسة اليونانية برافد مذبحها ذي الأقواس السبعة. أما الشموع فلم أر في حياتي أضخم منها حجما، فلكأنها جذوع أشجار. في أعلى القوس الأوسط نتوء على هيئة شرفة صغيرة يبارك البطريرك من فوقها الحضور في أيام الأعياد، لها شكل كشكل البرميل، وتخرج من تحتها خمس حمامات تمثل روح القدس، تمسك كل منها بمنقارها خيطا تتدلى منه كرات زرقاء، ذكرني مرآها بألسنة بابل في «حياة أبولونيوس» لفيلوستراتوس[1].

---

(1) روائي ومؤلف مسرحي فرنسي (1793 ـ 1871) كتب العديد من المؤلفات يصف فيها حياة بسطاء الناس بباريس، كما عرف أيضا بتأليف أغان حازت شهرة واسعة.

في وسط الكنيسة اليونانية، داخل ما يشبه إناء كرويا، هناك كرة من الرخام الأبيض يتوسّطها خط أسود، تشير إلى المكان الذي تبدى فيه الملاك للمريمات الثلاث.

يصعد الزائر إلى طريق الآلام عبر سلّم حجري من تسع عشرة درجة. وهو مقسوم نصفين، أولهما وأجملهما لليونان والآخر للرومان. والمكان كله مليء بالمصابيح والرخام الملوّن، لكن أولئك وهؤلاء يستوون في فساد الذوق.

الممر العلوي الذي يدور حول القبّة مقسوم هو أيضا نصفين، أحدهما لليونان والثاني للرومان، وهذا الأخير هو الذي يحمل صورة الملك لويس فيليب.

أما كنيسة الأرمن ففي الأسفل، وينزلون إليها بسلم طويل يهبط تحت كنيسة اليونان، مدخله على يمين الداخل إلى القبر المقدس، بين سلم طريق الآلام وكنيسة اليونان.

الباشا هو الذي يمسك بمفاتيح القبر المقدس، ولولا ذلك لأفنت الطوائف المسيحية هناك بعضها بعضًا. لذلك كان الأمر على هذه الشاكلة أفيد وأضمن للسلم، رغم أن وجود مفاتيح القبر المقدس في يد الأتراك المسلمين لا في يد المسيحيين هو في حد ذاته أمر يثير الاستغراب إلى حد الضحك. ديّة من يُقتل من اليهود في مكان القبر المقدس تؤدى إلى الكنيسة، وقدرها ستون بارة. أثناء زيارتنا للمكان سمعت أجراس الكنائس تدق الساعة الرابعة.

الخميس 15 غشت / آب. يوم عيد الصعود. خرجنا من باب القديس إيتيان، الذي يحمل على واجهته الخارجية نحتًا لأربعة أسود تقليدية، بارزة الأنياب بادية الشراسة، مثال جيد للأسود المرسومة في «حكايات العالم» في القرن السادس عشر. بعض الجنود يغسلون ملابسهم في قصعاتهم الخشبية. نادى أحدهم الغلام يوسف الذي كان برفقتنا. أثر في الصخر يشير إلى المكان الذي رُجم فيه القديس إيتيان. بستان الزيتون مغلق؛ هذه ثاني مرة نأتيه فلا تتسنى لنا زيارته.

كنيسة قبر السيدة مريم العذراء إلى الشمال، يقف في بابها رجل حبشي كنا قد رأيناه أثناء

زيارتنا للقبر المقدس. الكنيسة جميلة المنظر، ينزل إليها الزائر عبر سلم ذي أدراج عديدة. عتمة مطبقة، وبعض القناديل المنتشرة هنا وهناك، قليل منها المُضاء، والهواء مشبعٌ بروائح البخور يخنق الأنفاس. المصلى هنا إلى اليمين، لكني قد أخذت قسطي من الأشياء المقدسة فلست أرغب في المزيد. التقينا بالشحاذة الصغيرة الشقراء التي كنا قد رأيناها عند زيارة القبر المقدس. نزل بنا رجل يبدو كشيخ عربي إلى مغارة زعم لنا كما يزعم الآخرون أن السيد المسيح قد نزف فيها عرقًا ودمًا. رغبة محمومة في تحديد مكان كل شيء بدقة، حتى لكأنهم يودون لو استطاعوا أن يمسكوا الربّ بين أيديهم!

دخَّنا شيشة وشربنا فنجانًا من القهوة تحت شجرة هناك، بين ضريح السيدة العذراء وبستان الزيتون. وغير بعيد منا، في مكان محاط بسور، جلس اثنان من الرهبان الكبوشيين يزجيان الوقت بالتدخين كذلك، لكنهم عوض القهوة يشربون بعض الكحول، برفقة فتاتين بارعتَي الجمال يبدو صدر إحداهن الأبيض عاريا. لكم كان السيد دو بيرانجي سيسعد برؤية هذا المنظر لو كان هنا، ولكم كان سيتخذ منه، لو أنه رآه، مادةً للسخرية والتندر! اشترى جوزيف من هناك نوعا من الحلوى، عبارة عن ألواح رقيقة من العجين الأشقر المصنوع بزيت السمسم.

عند النزول إلى وادي جزفة، ثلاثة قبور، أولها قبر أبشلوم، وهو عبارة عن معبد مربع تعلوه قبة تنتهي على شكل قُمع مقلوب. في كل ركن من الأركان الأربعة قاعدة يقوم عليها عمود، وعلى كل واحد من الجوانب عمودان لهما تاجان أيونيان، وإفريز مسطح تزينه مربعات صغيرة قبيحة، والمنظر في مجمله رديء ينم عن فساد ذوق. أما القبر الثاني فقبر ماتياس، وهو محفور في الصخر ومحاط به، يشبه سابقه إلا في تيجان الأعمدة. تحته حُفرت في الصخر كوَّتان أو نافذتان مربعتان، يدخل منهما الزائر إلى القبر الثالث، حيث يوجد عدد آخر من المغارات الصغيرة، وأمامه تمرّ الطريق التي تمضي بين القبور الإسرائيلية المغطاة بكتابات عبرية، وكذا سور القبر الثالث، قبر أزاخياس (أو حزاقيا)، المتوجه أكثر من صاحبيه صوب الغرب في مواجهة الأسوار. أعمدة مثل التي في القبر الأول، أما السقف فمن صخرة واحدة محفورة على شكل هرم. إلى جوار هذا القبر الأخير، يجد النازل إلى

الوادي بناء آخر على شكل ضريح غارق في الأرض، يبدو منه رأسان مشوهان لعمودين اثنين، وتغلق بابه كومة من الحجارة يبدو أنها قد وضعت هناك من أجل هذا الغرض، في حين تراكم التراب عند المدخل.

نبع سلوام يقع إلى الأسفل، وفي مواجهته القرية التي تحمل الاسم نفسه. بعض أشجار الزيتون في المكان، وعلى بعد خطوات من هناك تبدأ بساتين الخضراوات. طفل يحبو فوق الحجارة، وحمار ينظر إلى قعر مذود فارغ. رجال يصعدون السلم الحجري عائدين من النبع، يحملون قِرَبهم المنتفخة على الأكتاف. مددت يدي أقي الطفل الصغير السقوط ثم أعدته إلى السطح الحجري الذي كان يحبو فوقه.

ينزل الزائر درجات السلم العديدة، فيفضي إلى قبة يليها سلم ثانٍ. السقف من حجارة سوداء، وفي أقصى المكان يرقد الماء كأنّه حيوان في قعر حجره: إنه النبع. أصوات الرجال وهم يملؤون قِرَبهم ماءً.

بيت قيافا، إلى جنوب المدينة في الأعلى. بيت نظيف أبيض مقبب ذو أقواس. من الباحة إلى السقف امتدت فروع دالية ضخمة مهيبة لم أر في حياتي أطول منها ولا أضخم. فوق الشرفة التي تعلو البيت تدلت عناقيد العنب. اقتطف منها ستيفاني عنقودا لكنه لم يكن قد أتم نضجه. عناقيد كبيرة من عنب بنفسجي وأبيض.

الجمعة 16 غشت / آب. رحلة إلى نهر الأردن والبحر الميت. الطريق أقل أحجارًا كلما ازددنا ابتعادًا عن القدس، لكنها لا تني تصعد وتنزل حتى أريحا. الشيخ محمد يخفرنا، رجل أشقر بعمامة بيضاء وحذاء طويل أحمر، ومعه رجلان آخران من قرية سلوام. التقينا كثيرا من البدو يركبون جمالهم متجهين صوب القدس لبيع محصولهم من القمح، لأن اليوم يوم سوق. منظرهم لا يبعث على الاطمئنان، بهيئتهم الغريبة وأحذيتهم المتنوعة التي فيها الحذاء الطويل الأحمر وفيها النعال التي هي مجرّد قطعة جلد تُشَد إلى القدم بحبال. منطقة عريضة من الجلد تَحزم وسط الجسم وكوفية تغطي الرأس. جلّهم يحملون بنادق طويلة الماسورة مزيّنة بقطع من الجلد. ما من شيء يلبسه البدوي أو يحمله إلا ويصير بدويًّا مثله، ولعل هذا

هو ما يفسر كون الألوان جميعها تتشابه هاهنا، حتى وإن اختلفت مكوناتها. بعضهم حاسر الرأس، أما نساؤهم فلهن أعين واسعة بلون البن المحروق، وشفاه مصبوغة بالأزرق.

في أقصى شِعب على هيئة قمع ينتصب بناءان: قوس وبضعة منازل خربة. إنه بئر السامرية. توقفنا هناك لبعض الوقت. حمير وإبل وبدو يستريحون، مختلطين كلهم بعضا ببعض. الشمس حارقة والجبال تحيط بالمكان. جمل أمامي في أعلى المنحدر يسير ببطء. لم أكن من مكاني هناك أرى سوى مؤخرة كفله وقوائمه وهي تختلف جيئة وذهابًا، والسماء تظهر بقعا زرقاء في ما بينها، فكأن الجمل يمضي صاعدًا في القبة الزرقاء إلى الأعالي.

بعد الطريق الحجرية جاء التراب، وبعد هذا جاء الكلس. لست أدري ما الحيلة البصرية التي يلجأ إليها الضوء ليفعل فعله، لكن ما أدريه أن بياض الكلس يستحيل تحت أشعة الشمس ورديًّا، فترى العين بُقَعًا ورديّة في أسفل الحجر، يمضي لونها في شحوب كلما صعد البصر نحو أعلى الصخرة. أتت عليّ لحظة حسبت فيها أنّ كل ما حوالي يتراقص في جوّ وردي. الطريق تنعطف، والشمس لا تني تحرق ما تحتها، ومن الخلف يتناهى إليّ ضجيج شيوخنا وهم يتراكضون بالخيل متمازحين. مروا بحذائي فتبعتهم ركضًا. من حين لآخر، من فجوة في الجبل، تظهر مياه البحر الميت. في بعض المواضع تبدو الأرض الرمادية التي تنتثر فوقها بقع من الحشائش اليابسة كأنّها جلد فهد عظيم ذي بقع ذهبية، وفي مواضع أخرى تصبح الأرض على شكل بقع رمادية بين الحشائش التي ليست في حقيقتها حشائش بل فقط تبنًا يابسًا.

قبل الإفضاء إلى سهل أريحا تضيق الطريق حتى تصبح عبارة عن شق بين حائطين عظيمين من الحجر، سرنا لصق الأيمن منهما.

في أقصى هذا الوادي، وادي أبي موسى، يمتد شريط ضيق من الخضرة، يدل على المكان الذي يجري فيه الماء في الفصل الماطر، والذي كان عند ذلك جافًا. يبدو الشريط كأنّه ثعبان أخضر يمضي متلوّيًا بين صخور ضخمة. من أعلى جبل أبي موسى: سهل كبير منبسط لا يحده شيء من يمينٍ ولا من شمال، تفاجئك في وسطه خضرة الأشجار الشائكة الداكنة،

وخلفها جميعًا زرقة مياه البحر الميت، وفي أقصى المشهدِ الجبالُ التي تكتسي حسب مسقط الضوء ألوانًا تمثل كل الدرجات الممكنة لما لا أجد ما أسمّيه به سوى الأزرق. وإلى الشمال جبل الأربعين، تعلوه بعض الخرائب.

نزلنا إلى السهل، وبعد أن سرنا لبرهة بين الأشجار الشائكة، أفضينا إلى جدول ماء صاف يجري هناك، فأنزلنا أحمالنا وتناولنا طعام الغداء ثم استسلمنا للقيلولة.

عين السلطان: الماء يجري متدفقا بسرعة، تسبح فيه أسماك صغيرة راحت تسحب قشور البطيخ التي كنا نلقي بها. بلغنا الريشية حوالي الرابعة عصرا. حصن تركي، عبارة عن بناء مربع مشيد بالحجر وسط القرية المكونة من نحو أربعين منزلا وكوخا. في الباحة إسطبل ربطت فيه خيول. فرس رمادية وبجوارها مهرها الذي يبدو ابن يومين لا أكثر، مازال يجد صعوبة في الوقوف، يرتطم بقوائم أمه ثم يكبو على حافريه.

إلى يمين الداخل صهريج ماء جلس إلى جواره عدد من الأتراك يدخّنون. هناك كوخان من القش في الطابق الأعلى من البرج، المحاط بصف من الفتحات الحجرية المبلطة بالطين، التي يروق منظرها للعين الناظرة إليها من أسفل، خصوصًا حين ترتسم أشباح بعض الجنود فوقها. ظلَّلوا لنا أحدها ببعض البسط فجلسنا تحته ندخن الغليون ونشرب القهوة. في الأسفل هناك امرأة تعجن خبزا وتضعه فوق صفيحة ساخنة موضوعة على نار الموقد، فينضج الخبز فورا. دخان الموقد يتصاعد فتدمع له أعيننا مثلما تدمع عينا الخابزة. أما الخبز فبلا خميرة، وهو المعروف باسم خبز السفر عند اليهود. قبل العشاء خرجنا في نزهة في الغابة القريبة. كان الوقت أصيلا، والشمس تنحدر صوب المغيب. ولما كانت الجبال المقابلة تمضي في ارتفاع وانحدار، فقد صار المنظر خليطًا من بقع مضيئة وأخرى مظلمة. في أماكن أخرى كان شكلها أكثر حدة، كأنّها قُدَّت بإزميل الحَجَّار قَدًّا. خلفها ما يشبه الحريق من امتزاج الوردي بالبنفسجي فوق أرض سينا. أما السماء خلف ذلك كله فبيضاء، وهي ذات اللون الأكثر شحوبًا بين ما في اللوحة من ألوان. اقتطفنا بعض النعناع من باقات تنبت هناك كثيفة عطرة.

امرأة شابة، بخدين مكتنزين بعض الاكتناز، ترتدي ثوبًا أزرق وتتدلى ضفائرها فتحيط بالوجه. وجدتُ صعوبة في تناول طعام العشاء بسبب جيش من القطط هاجمتنا تريد اختطاف ما استطاعت من طعامنا، حتى اضطر جوزيف وساسيتي إلى القيام على الحراسة حاملين عصيًّا في يديهما يهشّان بها عليها لإبقائها بعيدة عنا. القطط تموء في حزن وهي متجمعة على عشر خطوات من مدخل الحصن، فترد بعض الكلاب على موائها نباحًا. القمر ينبلج من الجنوب، من جهة البحر الميت، وصوب القدس بزغت نجمة كبيرة فلمعت لبرهة ثم انطفأت. كنا نتأمل المشهد على حافة الفتحات فوق السور، وإلى جوارنا صار الجنود الأتراك أقل ضجيجا، فاضطجعنا للنوم.

في اليوم التالي - يوم السبت - خرجنا عند الخامسة والنصف وسط كوكبة من الفرسان الصاخبين، نريد نهر الأردن. سرنا لساعة وسط الأشجار الشائكة كفعلِنا بالأمس. أبصرنا خنزيرًا بريًّا حسبه مكسيم فيلا أو فرس بحر. أما حنّا فقد أصيب بالحمى فعاد إلى أريحا.

نهر الأردن: ماء قاتم بلون العدس، وأشجار صفصاف تحني هاماتها إلى الأرض. توقفنا على بعد ذراع واحدة من الماء. على مقربة منا إلى ناحية الشمال شجرة كبيرة مائلة الجذع. شربت من ماء النهر من بين الأحجار، على القرب من بغل كان يشرب مثلي، بينما أبو عيسى واقف بهدوئه المعهود وهو ممسك بلجامه. يطلق عرب هذه البلاد على البدو المقيمين في ما وراء النهر اسم «النمور». عرض نهر الأردن في ذلك المكان يقارب عرض نهر لاتوك في بون ـ ليفيك في شمال فرنسا. تمتد الخضرة لبعض الوقت ثم ينتهي كل شيء فجأة فيجد المرء نفسه في وسط برية فسيحة بيضاء، وإلى اليمين الكتلة البيضاء للسلسلة الجبلية الأولى من جهة بيت المقدس.

البحر الميت: يوحي منظر البحر الميت، بسكون مياهه ولونها، بمنظر بحيرة. الأرض المحاذية للماء جرداء، لكن عند اقترابك تلمح إلى اليمين بعض الخضرة. شاطئ البحر يغطيه كثير من جذوع الأشجار الميتة وبعض الأخشاب لا شك أنها مخلفات قد حملها نهر الأردن إلى هناك. بدت لي درجة حرارة الماء في نحو ما يكون عليه حمام عادي، أما لونها فكان على

عكس ما توقعته صافيًا غير داكن. وقد تذوَّق منه ساسيتي فاحترق من ذلك لسانه، ولما كنت أشعر بالعطش فلم أجرؤ على خوض التجربة. دفعنا بخيولنا في الماء متجهين صوب جزيرة من الحصى، تبعد عن الشاطئ نحو ستين خطوة. عن شمالي بدت لي أربعة جبال أو قل إنها أربع قمم لجبل واحد، ثانيتها ذات لون أشد قتامة من ألوان الأخريات، رغم أن لونها الداكن يمضي متدرّجا، أما القمة الرابعة فتختفي في ضباب الأفق البعيد. وأمّا لون الجبل القائم إلى اليمين، الذي يتعين تسلُّقُه من أجل بلوغ مار سابا، فيميل إلى البياض عند الأسفل، حيث تبدأ أول سلسلة من التلال. أمّا اللون الغالب على الجبل فرمادي يجلِّله بنفسجي تتلاعب فوقه تموّجات وردية.

على بعد نحو ثلاثة أرباع الساعة من البحر الميت، يبدأ المسافر في ارتقاء الجبل، حيث تمضي الطريق انطلاقًا من هناك في دوران وصعود وهبوط لا ينتهي، فتتخذ تارة شكلًا هلاليًّا أو تصعد مدرجًا أو تحاذي حائطًا حجريًّا ضخمًا، ومتى التفتَّ إلى الوراء يتراءى لك المنظر المذكور آنفا وأفقه يزداد اتّساعًا كلما ازددتَ في الجبل صعودًا.

سرنا على حافة جرف عظيم، وعند أقدامنا هاوية يتراءى في قاعها خط أبيض يمضي متراقصًا، تحيطه الأشجار من الجانبين كأنّه طريق، وما هو إلا مجرى الجدول الجاف. بضعة طيور من الحجل تركض فوق الرمال الجافة. بعد هذه السلسلة الأولى تبدأ أخرى، يسير عليها السائر فوق حافة محدودبة كأنّها ظهر سمكة ضخمة أو سطح مصلّى كنيسة. يلي ذلك نجدٌ منبسط ثم تبدأ سلسلة ثالثة من الجبال ومعها الصعود والدوران عَودًا على بدء. أما الأرض فتنتشر فوقها باقات صهباء من تلك النباتات الشائكة التي تنمو بكثرة في هذه البلاد، وأما الأعشاب فكمثيلتها بالأمس، عبارة عن أعواد من التبن الجاف تقف بارتفاع نحو بوصة واحدة تقريبا. السماء زرقاء جافة قاسية، وهبَّةُ هواء منعش من حين إلى حين، غير أن الحرارة أقل ارتفاعًا منها في الصباح حين كنا نقطع المسافة بين نهر الأردن والبحر الميت. صهريج منحوت في الصخر على اليمين، ماؤه أخضر اللون رديء الطعم، استقى منه أبو عيسى بحبل. أحجار تبدو من أعلاها قمة جبل مورة التي يعلوها مسجد، والأحجار مرتبة بحيث يخال الناظر إليها أنها قبور.

مار سابا: قبل الوصول إلى هناك، منحدر طويل يقود إلى الدير. أما الوادي أو قُل الهاوية السحيقة فأجمل بكثير من نظيرتها عند جبل مورة، لكونها أعلى منها ارتفاعًا وأحدً منها مقطعًا. وفي الفضاء راح الحمام يحلق من جانب إلى آخر ثم يعود إلى أوكاره في فجوات الصخر.

الدير مبني على الصخر وفي الصخر، ومن الجهات جميعًا هاوية سحيقة. هو دير فلسطين الحقيقي إذا اعتبرنا موقعه. أدلوا إلينا بسلة صغيرة جعلنا فيها رسالتنا، ثم أنزلونا في ديوان كبير مفروش بالبُسُط، ينيره مصباح من النحاس معلق في السقف. الرجل الواقف على خدمتنا راهب هرِمٌ أبيض اللحية محدودب الظهر.

في الكنيسة لوحات مرسومة بالأسلوب نفسه الذي تجده في كنائس اليونان جميعًا، فهو فن قائم بذاته. على الباب الرئيسة لوحة تمثل مشهد القيامة: الجحيم في فم وحش مخيف، أما المؤمنون فيسيرون في مجموعات متراصة، وعلى رؤوسهم هالات القداسة، متجهون صوب مدينة بيت المقدس السماوية ليدخلوها. وفي الجوار قبور تنفتح. ويبدو النبي يونس راكبا بهيمته، ورجلان من الأتراك عند قدمي أحد الأنبياء. المنظر في عمومه ممتع غاية الإمتاع. في لوحة أخرى يبدو القديسون على شكل دمى من التي يزينون بها المذود في أيام الأعياد، أو قل إنهم على شكل رهبان براهمانيين، بأجساد طويلة نحيفة ولحى عظيمة منسدلة تبلغ الأقدام. هناك شيء يجمع بين اللوحات اليونانية جميعًا، هو يوحنا المعمدان الذي يبدو فيها كلها مجنحا، فيما وجهه ينطق بشراسة ضارية. أما العذراء فهي دوما مع السيد المسيح الذي يقبلها وذراعاه منفرجتان كطفل صغير. هناك أيضا كمٌّ كبير من اللوحات، مهداة من قبل روسيا إلى الدير.

أرونا قبر القديس مار سابا، عبر شباك حديدي. هناك عدد من الجماجم قيل لنا إنها جماجم الرهبان الذين قتلهم البدو. أرونا حتى ساعة الكنيسة. في الحديقة، حمامة اصطناعية. الدير يطعم ثعلبين اثنين. رغيفان اثنان من الخبز يرمون لهما بهما كل مساء، وكل مساء يأتي الثعلبان لينتظرا الرغيفين، حتى إذا رُمي إليهما بهما احتملاهما وذهبا. لم أنم طيلة الليل. ضوء

القمر يغمر الجبال والدير معا، ودقات الساعة تمضي منتظمة دائبة لا تتوقف. دقات جرس الكنيسة ثم أناشيد الرهبان. أنا جالس فوق كرسيّ أدخن وأنظر إلى الظلام، فيما قدماي مستندتان إلى حافة السور القصيرة.

انطلقنا عند الساعة السابعة صباحا، بعد أن تناولنا فنجان قهوة وكأسًا صغيرة من الكحول وعنقودًا من العنب جعلت كلها يقظتنا عنيفة. نزلنا منحدر مار سابا وسرنا متجهين صوب بيت المقدس. مللت من السير البطيء خلف حصان الشيخ محمد، فأطلقت لحصاني العنان وسرت حتى جاوزت القوم فبقيت أسير أمامهم بنحو مائة خطوة قرابة عشر دقائق. وفيما أنا سائر رويدًا سمعت خلفي طلقة نارية تلاها نباح كلاب، فقلت لنفسي إنه لا شك ماكس قد أطلق النار على أحدها، لأني أعرف نظرياته في هذا الموضوع. أوقفت حصاني وجعلته يعود على أعقابه. حينها أبصرت على بعد نحو مائة خطوة مني دخانا يتصاعد، ولما كان مصدره يبدو أعلى من مستوى الطريق فقد قلت لنفسي إنه أحد البدو يمارس القنص أو أحد الرفاق يلهو ببندقيته. وفيما أنا سائر أتساءل أي الفرضيتين أصح، وفكرة الخطر لا تَطرَفُ لي ببال، ظهر لي ماكس وجوزيف وشيخانا قادمين جميعًا من خلف منعطف يسيرون في هدوء وطمأنينة، فخمنت أنهم لم يقتلوا كلبا، إذ لو كان الأمر كذلك لكثر منهم اللغط والصياح ولسمعتهم يدلون بعضهم لبعض بالحجج والاعتراضات. التحق بي ماكس خَببًا فروى لي ما وقع. وقد لاحظت أنه كان غاضبًا بعض الشيء لكوني لم أسارع إليهم حين سمعت طلقة النار كي أساعدهم إن كانوا في حاجة إلى المساعدة. ولعلّه كان على حق في ذلك، لكن عذري أني لم يدُر لي ببال أن هناك خطرا متربصا، ناهيك عن أني حين عدت أدراجي نحوهم سرعان ما رأيتهم قادمين في هدوء، فازددت يقينًا بألا شيء هناك مما يستدعي القلق، وانتظرتهم مكاني حتى لحقوا بي.

وبينما نحن نسير جنبًا إلى جنب مرقت رصاصة بيني وبين ماكس، أقرب إليه مني، تلاها صوت الرصاص، وحتى لحظتها لم يجر لي ببال أن هناك أدنى خطر. حينها استدار ماكس فإذا به يرى رجلا يصوب نحونا بندقيته وهو يستعد لإطلاق النار، فما كان منه إلا أن صرخ بي وقد اعتراه الفزع: «إنّهم يطلقون النار علينا! انج بنفسك! يا إلهي! هيا! هيا سريعا!» ثم

رأيته وقد سار يعدو بفرسه وقد أحنى رأسه حتى لامست قربوس سرجه، وأمسك بسيفه في يده. تبعته دون تردُّد، ومررت في عدوي بجوزيف فصرخت به أن ينجو بنفسه! خلت نفسي أراه وقد انقلب كيس سفره فاندلقت محتوياته أرضا، بما فيها بندقيته وغلايينه، وهو يهم بإيقاف فرسه ليجمع ما سقط منه، غير أن ذلك كله كان وهما مني، إذ لم يسقط في تلك اللهوجة سوى غليوني، وحتى هذا لم يضع إذ وجدناه عالقًا بسرج أحد الشيخين. سمعت طلقة نار ثانية، وصرخ ماكس يخاطبني فلم أسمع ما قاله، وكان لا يزال يُركِض حصانه مبتعدًا بأقصى ما استطاع من سرعة. حينئذ فقط أدركت ما نحن فيه من خطر، فامتشقت سيفي وأمسكته في يدي الشمال فيما اليمنى ممسكة بعنان الحصان، وسرت أركض بدوري كالمجنون، متخطّيًا كل الحواجز في طريقي. كان في ذلك متعة كبيرة ملكت علي مجامع نفسي؛ كنت أركض وكل ما أخشاه هو أن أقع من على ظهر الحصان، ذاك هو الخطر الوحيد الذي كان ينبغي اجتنابه، لذلك سرت وأنا متمسّك بصهوته بكل ما استطعت، فإذا أفلت اللجام من يدي أمسكت به بين الأسنان وأنا في غاية الاستمتاع بهذه المطاردة غير المنتظرة، مطمئنا إلى منعطفات الطريق الملتوية التي كانت كفيلة بأن تحجبنا عن مصدر الرصاص. غير أن هذه الفكرة في حدّ ذاتها لم تلبث أن أوحت إلي بالباعث الوحيد للقلق، إذ ما أدراني لعلهم يعرفون من الطريق مداخل لا نعرفها، يقتفونها ليقطعوا علينا الطريق فيشرفون علينا من مرتفَع لنصبح صيدًا سهلًا في مرمى بنادقهم. توقّف ماكس لمرتين، لكن الشيخين كانا في كل مرة يهيبان بنا أن نسرع. أوقفت حصاني مرة ثالثة رحمةً به، غير أن ماكس لم يتوقّف بل تابع المسير، فلحقت به. دام الأمر حاولي عشر دقائق، لعلنا قطعنا خلالها فرسخًا كاملًا قبل أن نتوقّف عند مفترق طرق. وسرعان ما لحق بنا جوزيف الذي كنت أظنه بقي بعيدا فإذا به قريب. بقينا لدقيقة حائرين أي طريق نتَّبع، ثم اخترنا إحداها وسرنا فيها، فما لبث الشيخان أن لحقا بنا، ما يعني أننا لم نخطئ في اختيار طريقنا. وقد اكتشفنا عندئذ ضياع أحد الأكياس، هو الذي فيه الفرمانات المتعلقة بنا، لكن جيءَ لنا به في صباح اليوم التالي.

عدنا بعد ذلك إلى بيت المقدس عبر سلوام وبوابة القديس إيتيان.

ذهبنا في زيارة إلى القنصل برفقة الشيخ محمد، حيث روينا له ما حدث، ثم استرحنا

للقيلولة قبل أن نتناول عنده طعام العشاء. في المساء استمعنا لمقطوعة من تأليف بتهوفن، ذكرتني بأختي المسكينة والأب مالنسون وذلك الصالون الصغير حيث رأيت الآنسة جين تأتي بكأس من الماء المحلى بالسكر. خنقني ما يشبه الغصة انقبض لها صدري، وأورثتني هذه الموسيقى، رغم العزف الرديء، خليطًا من الحزن ومن المتعة معًا.

الاثنين 19 غشت / آب، الثالثة عصرا

مضى اليوم التالي في كتابة بعض الرسائل.

الأربعاء 21 غشت / آب، زرت برفقة ستيفاني دير القديس يوحنا. خرجنا من باب دمشق ثم سرنا لساعة وربع الساعة فوق طريق حجرية قبل أن نبلغ المكان.

يقع دير القديس يوحنا في منتهي فج عميق، يخترق زائره قرية فيها أشجار زيتون ضخمة يعتليها قرويون. غصن زيتون ذو بريق فضي يرتفع في وجه الريح مرتعشا. هناك تمثال صغير للنبي زكريا في مصلى الدير، يحيط به مذبحان صغيران عليهما قبتان من الجوخ الدمشقي الأحمر. المكان الذي ولد فيه يوحنا المعمدان يوجد إلى شمال المصلى، وهو عبارة عن مغارة تم تحويلها إلى كنيسة. حولها نقوش في الحجر تروي محطات من حياة القديس. هناك مَوهِف الكنيسة، وهو مكان كانوا يستعملونه لإعادة طلاء الصّوانات، وصليب إسباني عليه مسحة من المأساوية. في الديوان الذي استقبلونا فيه انتصبت أمامي خريطة تمثل إسبانيا والبرتغال. غادرنا المكان وعدنا أدراجنا في صمت.

مررنا ببستان قرب بيت المقدس، زرعه رجل يوناني هو كاتب البطريرك الخاص، وجعله وقفًا على الطائفة المسيحية هناك، بين الصخور والأحجار التي تكسو الأرض. بلغنا مكاننا في الخامسة والنصف.

حوالي منتصف النهار، رأيت في زقاق جانبي امرأة مسيحية، سوداء متسخة دميمة، بعينين جميلتين وأنف مستقيم وأسنان خربة. إلى الشمال غرفة فيها فراش أسود. الشيخ مصطفى وجوزيف في الساحة، والخادم العجوز ذو البشرة البيضاء والابتسامة الدائمة

والجبهة المكسوة قطعًا فضية. إلى شمال النازل تنفتح باب صغيرة. وجدنا بانتظارنا امرأة تلبس أسمالا هي من أدخلنا. الشمس ساطعة والصمت مطبق، وإحساس ثقيل يعتري المرء حين يمضي في أزقة خالية تعلو الرطوبةُ جوانبَها المظلمة. أشعة الشمس تغمر السطوح، وفي الأركان بعض المتاع، وقطّ يسير فوق جدار وقد انتصب ذيله قائمًا.

يوم الجمعة 23 غشت / آب، غادرنا القدس. موقف صعب مع ساسيتي. ودعنا ماكس بوتا والمزين مينار وأميدي. أمّا ستيفاني فشيّعنا لساعة حتى أدركنا أمتعتنا. تبدو القدس كلما ازددنا عنها ابتعادًا كأنّها تغرق وسط خضرة أشجار الزيتون التي تلي مدافن الملوك، أمّا من ناحية الشمال فإن أسوار المدينة المستقيمة تبدو كأنّها تمضي في ارتفاع وانخفاض فتظهر تارة وتختفي أخرى وسط خضرة الأوراق. وقد خلت نفسي مرة سأراها من جديد لأودعها، لكن هضبة حالت بيني وبينها، فلما التفتُّ وجدتها قد اختفت تماما. الأرض في أول الطريق أقل أحجارًا بعض الشيء، ولها لون أصهب داكن كلون التبغ هنا.

توقفنا في «البير»، في مكان يشبه الخان أو الحصن، قال لنا جوزيف إن الحُجّاج هم من بنوه. هناك أحجار تتساقط هنا وهناك من القبة، والمسافرون يسدون الثقوب بما وجدوا. من حين لآخر يمر بنا قطيع صغير من الماعز الأسود. أرض جرداء تحيط بنا من كل جانب، أحجار وصخور بعضها بلون الصوان، حتى وصلنا نبع عين الحرامية. قبل الوصول إلى هناك نزلنا منحدرا سحيقا عبر طريق يمر بمحاذاة صخور كبيرة إلى اليمين، بعضها يشبه خيامًا كبيرة غير مكتملة البناء. أطفال يغنون عند منتصف المنحدر، تخفيهم عنا أشجار الزيتون، ورجل جالس عند العين يأخذ قسطًا من الراحة وهو ممسك لجام حصانه بيده. مر بنا جملان فيما نحن نسترجع أنفاسنا جلوسًا في الظل وندخّن غليونًا. بدا لي أحد الجملين، بشفته المتدلية والسالفين المنحدرين على جانبي رأسه، كعجوز بأنف أفطس وتسريحة شعر إنجليزية.

بعد حوالي الساعتين بلغنا قعر الوادي عبر طريق وعرة مليئة صخورًا، فنصبنا مخيمنا هناك للمبيت. أمامنا هضبة مستديرة، وإلى الشمال اثنتان وإلى اليمين رابعة وخلفنا خامسة،

ونحن في منبسط من هذه الأرض التي تمضي ارتفاعا وانخفاضا. الطريق تمر من أمامنا، وقد اجتازت من هناك ثلاث نسوة سمعتهن يتحادثن في ما بينهن. بدأ الليل يرخي سدوله، وانشغل ساستي بإعداد الأسِرَّة للنوم. نفض أحد بغالنا رأسه فسُمِعت لجرسه صلصلة. العين عن يميننا وفي أسفل المنحدر يقوم خان لبنان.

قمنا عندما طلع القمر فأنار المكان. كنا نرتجف من شدة البرد الذي جمدت له أطرافُنا الليلَ كله. انطلقنا قبيل الرابعة والنصف فجرًا، فسرنا على طريق أفضل من سابقتها بالأمس، على السفح الأيمن من الجبل، الذي درنا من حوله كي ندخل وادي سيخم. عند الثامنة صباحًا، تناولنا طعام الإفطار ونحن نمر بقرية حوارة التي تركناها إلى شمالنا. أمامنا امتد وادٍ واسعٌ فسيح تحيط به الجبال من كل جانب، وتنتثر على صفحته من مكان لآخر حقول صغيرة مزروعة أو مساحات مغطاة بالعشب، وتخترقه طريق تتجه صوب طبرية. انحرفنا إلى الشمال لندخل وادي نابلس. عند هذا المنعطف من الطريق مرت بنا امرأتان تحملان أثقالًا، إحداهما بعينين سوداوين كبيرتين وطربوش أحمر يغطي الجبين، يتوسّطه قرش فضي، ووجه ينم عن الحيوية، وجهت إلي تحية الصباح.

نابلس مبنية بالحجارة، وبها عدد من القباب وأسوار ذات خطوط مستقيمة. قاصد المدينة يجد عن شماله، قبل بلوغها، غابة صغيرة من الزيتون تخترقها الطريق. هناك بساتين كبيرة وارفة الظلال، ومياه جارية، وطرقات ضيقة تحفها الخضرة وتتدلى على جوانبها أغصان العوسج. قاذورات منثورة على ضفاف مجاري المياه. نصبنا مخيّمنا في بستان تحت شجرة توت ضخمة حتى لتخالها شجرة صنوبر. هنا وهناك تبدو بعض النسوة اللواتي خرجن للترويح عن النفس، ورجلٌ في الحديقة، لعله الحارس أو البستاني، أمسك بثعبان أسود ضخم.

البنايات في نابلس شبيهة بنظيرتها في القدس، غير أن الأسواق أجمل.

اخترقنا المدينة من أقصاها إلى أقصاها، ثم عدنا أدراجنا بعد أن احتسينا فنجان قهوة في مقهى هناك. للجامع الكبير باب كان لإحدى الكنائس أيام الصليبيين. طرازه روماني

متأخر، بأعمدة ذات تيجان على شكل أوراق الأقنثة، بعروق متتالية متراكبة مقوسة، كل ذلك في حال سليمة لم تُمس. بعض الحوانيت تلقي بالجلود أمام أبوابها لتجف، والمارة يمشون فوقها. جاء أحد الأقباط معتمرا عمامة سوداء يعرض علينا أحجارًا لا قيمة لها، ومررنا بمقهى أو اثنين فيهما جرار ماء عظيمة. أردية من الصوف الأبيض أو من صوف الحرير. بعض الرجال يعتمرون طرابيش فوق عمائم صغيرة، ويُميلون الطربوش الذي تمسكه العمامة حتى يكاد أعلاه يلامس الكتف.

غادرنا نابلس في الصباح، فمررنا بمنزل وخضرة إلى الشمال، وسرنا في طريق وعرة رديئة حتى بلدة بديا. قبل الوصول إلى البلدة يشرف المسافر على الوادي الذي يبدو بحرًا من الحجارة، يتخلّلها القليل من البقع الأرضية العارية. أشجار الزيتون تحيط بالطريق من الجانبين، وبساتين مغلقة محاطة بأسوار من الحجارة الجافة. منظر يذكر بسفح جبل الكرمل، بل سفح جبل أبو غوش على وجه أصح.

قرية سجّور: بها حصن قديم على شمال الطريق يقوم على مرتفع وسط سهل فسيح.

قرية برقين: قرية بيضاء جافة مليئة بالغبار. تاه ساسة البغال فلم يعرفوا أي طريق يسلكون بنا. سكان المدينة ينظرون إلينا شزرا، والأطفال يسبوننا. «أيها النصارى الكلاب! أحرقكم الله بالنار وقتلكم شر قتلة!» تابعنا طريقنا مسرعين، لكن دون أن يمنعنا ذلك من أن نلاحظ أن ثلاثة رجال كانوا يسيرون أمامنا حاملين بنادقهم. بلغنا غابة من الزيتون فبدأت الطريق في الصعود. قبل بلوغ القرية التالية وجدنا شجرات مصطكا قد علقت بعض الأسمال على أغصانها، فعلقنا عليها بضع شعرات من أعراف خيولنا. مررنا ببعض الأحراش المنتثرة. هناك اختفى الرجال الثلاثة المسلحون عن أنظارنا، فتنادينا بيننا أن أعدوا أسلحتكم. اتبعنا الطريق التي تمر عبر مضايق الوادي، وذلك لأن الساسة، احتياطا منهم، رأوا أنها خير من تلك التي تمضي في الأعالي. مررنا بنبع ماء وقطيع من الماعز، وكان هناك نباح كلاب يتردَّد.

جنين: نصبنا مخيمنا كالأمس تحت شجرة توت. هناك مسجد وسط البرية الخضراء،

وحوله سهل فسيح منبسط. حاكم المدينة رجل بدين أصهب، يجلس أمام بابه، وقائد عسكري ذو لحية سوداء وأنف معقوف وعينين طيبتين متّقدتين مغسولتين بماء الورد، وقميص أحمر مقلَّم بالأسود. قمنا بجولة قصيرة في جنين التي ليس فيها شيء يستحق الرؤية عدا كلب ينهش جثة حصان متعفنة منتفخة وقد بدأها من المؤخرة. مررنا بدكانين أو ثلاثة، ابتاع جوزيف من أحدها عنبًا جعله في منديلي الأزرق. جاء أحد أقرباء الحاكم يتبعنا يريد شيئًا من سولفات الكينين. مررنا بطاحونة يديرها ماء جارٍ شديد الصفاء، ورأينا هناك امرأة تستقي منه، بحزام وخمار ملون لا يغطي منها سوى الفم، وذراعين بضّتين ويدين جميلتين تذكران بلوحات الفنان الفرنسي بيير مينيار، وأنف دقيق مستقيم وعينين سوداوين تنظران إلى الماء. جلبة الفحص الطبي في مخيّمنا. هذه البلاد موبوءة بالحمى وقطاع الطرق. قضينا ليلة أقل برودة من سابقتها.

استيقظنا عند الثالثة فجرًا وانطلقنا عند الرابعة، وسط طريق برية واسعة رائعة الجمال، تعرف هناك باسم بادية إسرائيل. بعض حقول السمسم المربعة تنتشر في السهل بلونها الأخضر الذي يميزها عما يحيط بها من بياض العشب اليابس، فيما الشجيرات الشائكة تلقي على الأرض بظلالها المستديرة التي تذكر بالمظلّات الصينية. ومن حين لآخر حقل قطن أو ذرة. أشرقت الشمس عن يميننا، لكن أشعتها سبقت ظهور قرصها المضيء من وراء الجبال، ففعلت في السماء العجائب. كانت هناك سحابة ملتوية الشكل كأنّها خمار طويل منبسط، بلون ذهبي في الطرف الواقع عند المشرق، يصير فجأة أزرق ثم يمضي في شحوب صوب جنين. قطف لنا أبو علي زهورًا من نبتة البنج، وسرنا يخفرنا ثلاثة جنود أتراك، أحدهم يحمل رمحًا من القصب طوله اثنا عشر قدمًا ولعلها ستة عشر، في رأسه طُرَّتان كبيرتان. نشبت بينهم خصومة فراحوا يركضون مسرعين والمسدسات في أيديهم، وسار الجندي الذي كان إلى الشمال يعدو في خط طويل منحرف كي يدركهم. عند الصباح اصطدنا أرنبا بريا، وفي أقصى السهل بدا لنا الجبل الذي تختبئ وراءه الناصرة، وإلى اليمين جبل طابور الذي تميزه العين بسهولة ويُسر عما يجاوره من جبال، بشكله الذي يشبه نصف كرة مقعرة. من الجبل يبدو السهل خلفنا مساحة صهباء في شحوب، كلون شكولاتة خفيفة، تتخللها

بقع أشد شحوبا من مكان إلى آخر. دخان يتصاعد، لعله من بقايا نار ليلية. مررنا أمام ثمانية مضارب أو عشرة للرعاة الذين يقودون مواشيهم ترعى في تلك الأرض، ولم نر كائنًا حيًّا سوى اثنين أو ثلاثة من الكلاب الصفراء. بلغنا سفح الجبل ففارقنا جنود الخفر، وفجأة تبدّت الناصرة لأعيننا من جهة الشمال.

الناصرة: أول ما يراه المرء من المدينة صومعة المسجد تحيط بها أشجار السرو. أما الأرض فمفروشة ببساط من الأحجار البيضاء يجعلها تبدو كفرو نمرٍ، في منظر مفاجئ يروق للعين. في أسفل المنحدر تنعطف الطريق إلى اليمين، وتلتقي بها أخرى منحدرة من الشمال. نباتات التين الشوكي مكسوة بالغبار، والشمس تلمع، وكل شيء يشع ضياءً. بدت أمامنا بيوت الناصرة البيضاء. أما العظايات فكانت أقل عددًا من أمس، حيث كنا نرى منها أعدادا على كل شجرة.

دير البشارة: أذكر لحية الراهب الذي استقبلنا على بابه، والقبطان الإنجليزي، مع زوجته وحفيدته، فتاة شقراء الشعر بعينين زرقاوين وضفائر مزينة.

ذهبنا في زيارة لممثل فرنسا في المدينة، بعد أن التقينا بابنه في أحد المتاجر. علمنا أنّ الطريق إلى دمشق شاق خطير، فشرعنا ننظم مسائل الخفر وما إلى ذلك من احتياطات.

قمنا بزيارة الكنيسة اليونانية الواقعة خارج المدينة، فوجدناها تعج بالعرب الذين يحتلّون المكان. اليوم التالي يوافق عيد العذراء عند اليونان. الجو خانق داخل الكنيسة، وعند الباب كمية من الغلايين التركية.

الكنيسة الرومانية: بُسط من صنع مدينة بني عروس، والمغارة التي كانت فيها مريم العذراء حين جاء الملاك يحمل إليها البشارة، وفي المكان ينتصب عمود من الرخام. أرونا خزانة هي النافذة التي نزل منها الملاك. هناك مغارتان خلف المذبح، هما مصلى السيدة العذراء ومطبخها. بيت يوسف في مغارة أخرى خانقة بالحرارة، ليس فيها إلا حائط من بناء روماني. في مكان آخر هناك مائدة حجرية، أو قل إنها صخرة مستوية، هي التي كثيرًا ما تناول عليها السيد المسيح الطعام مع حوارييه قبل قيامته وبعدها.

نساء عند النبع يتحدثن بأصوات عالية ويتخاصمن. النساء هنا جميلات أنيقات، بفساتين ذات شقوق على الجانبين يتطاير شقاها مع الريح. بعضهن يحملن الجرة على الرأس وبعضهن يضعنها على الخصر، وكثير منهن شقراوات. وجدنا مجموعة أخرى منهن واقفات عند منعطف من الطريق ونحن خارجون من الدير لزيارة الممثل الفرنسي، إحداهن طويلة القامة ممتلئة الجسم، بشعر أشقر وأنف أفطس بعض الشيء. الأحزمة التي تتمنطق بها النساء كالرجال تبرز خصورهن.

بيت ممثل فرنسا: لوحات تمثل أميلي كلارا وأورتانس وغيرهما، ولوحة لمشهد من إحدى معارك نابليون، فيها كثير من الألوان، ومشهد من «برج نيسل» بباريس.

من الناصرة إلى خربة قانا، منظر شبيه بما سبقه.

خربة قانا: تقع في قلب وادٍ تحيط به الجبال من كل جانب، والقرية مشيدة على منحدر تكسوه شجيرات التين الشوكي. مررنا خلف الكنيسة اليونانية التي رفضتُ أن أزورها. تذكرت عند ذلك لوحة الرسام الإيطالي باولو فيرونيز.

بعد قانا صارت الطريق أفضل حالًا، فسرنا وسط سهل فسيح منبسط تكسوه بعض الخضرة، يمضي طرفه الأقصى في ارتفاع حتى يلامس الهضبة التي تشرف على بحيرة طبرية، وإلى اليمين يرتفع جبل (أهو الجبل إياه؟)، فيجعل المنظر على هيئة مدرج ملعب روماني. إلى أقصى اليمين نار موقدة، يتصاعد دخانها مستقيمًا في استدارة كأنّه عمود حجري يصل الأرض بالسماء. سرنا ملتفين حول تلّ يبدو من أعلاه بحر الجليل، بِركةٌ صغيرة زرقاء، دهشتُ لمدى ضآلتها وسط جبال منخفضة تنتثر الصخور على صفحتها الرمادية. حيطان المدينة لا تزال تحمل شقوقًا من أثر الزلزال الذي ضرب المنطقة سنة 1828. نزلنا في فندق يديره رجل يهودي.

ريح الخماسين تهبّ. قضيت فترة ما بعد الظهيرة ممدّدًا على فراشي أتصبّب عَرَقًا وأنا أشكو من آلام في البطن وفي المعدة. في المساء بعد تناول طعام العشاء قمنا بجولة في المدينة. لا ترى إلا يهودًا، فيهم ذو الطربوش وذو القبعة السوداء العريضة. ذهب بنا إسماعيل أغا،

رئيس خفرائنا، إلى ضفة البحيرة. السماء فوق الجبال الرمادية تكتسي لونًا ورديًا شاحبًا. رأينا عجلا يرتوي عند الضفة، وقطعانا من البقر تتجول في المدينة، وإلى الشمال مسجد ونخلة. وعلى قمة الجبل تقع بيت أولا. أدخلنا إسماعيل إلى باحة فيها كثير من اليهود جلوسا، لعلها بيعتهم التي يتعبدون فيها.

في القاعة ذات السقف المنخفض التي ينزل فيها خفراؤنا والتي يتناول فيها جوزيف وساسيتي طعامهما، طفل صغير ينام عاريا في فراش هزاز. أما المراحيض فيقيم فيها كلب أصفر وخابية ماء. حين يريد أحدنا استعمال المكان يخليه له الكلب على مَضض، حتى إذا خلا له الجو عاد إلى مكانه. أمّا أنا فكان يتصبب من جسدي عرق أين منه ما سال من أريتوزا الإغريقية من ماء.

بحيرة طبرية، الثلاثاء 27 غشت / آب، الساعة السابعة وخمس دقائق مساء. الجو خماسيني خانق كمثله بالأمس. قضينا سحابة النهار متمدّدين على أسرّتنا نتصبب عَرَقًا. حوالي الرابعة عصرًا ركبنا خيولنا وخرجنا في جولة لنرى الحمامات الواقعة على نحو نصف فرسخ من هناك، على الضفة نفسها من البحيرة. سلكنا الطريق المارة بين الجبل والبحر، وسط أرض تكسوها الصخور البركانية وتنتثر فوقها أعمدة مكسورة، وحيثما ولّيت البصر ترى بقايا حيطان متهدمة. هناك بضعة أشجار عناب وشجرة دفلى وبعض شجيرات النعناع.

حمامات إبراهيم باشا: حوض تدعمه بضعة أعمدة صغيرة. كانت هناك امرأتان شديدتا الدمامة ورجل يهودي يخرجان من المكان فيما نحن ندخله. كان الماء ساخنًا، قدرتُ حرارته بما لا يقل عن ست وثلاثين درجة مئوية، أمّا الماء النابع من العين فكان أسخن من ذلك. وأما الحمامات القديمة فكانت بعيدا من هناك بعض الشيء. أمسك مكسيم بحرباء انتثرت فوق جلدها بقع بنية في لون الشكولاتة فيما نحن ممسكون بها بين أصابعنا. عدنا عبر الشاطئ، وفي البعيد بدت لنا جبال حوران، بلونها الرمادي الذي تعلوه مسحة وردية. حاولنا أن نعود أدراجنا عبر الأسوار المهدمة فاستحال علينا ذلك. البرج الأخير من جهة الجنوب

منفصل عن السور كأنّه ديكور مسرحي، ووراءه تقف نخلة وحيدة. دخلنا من باب يجلس على مدخله رجل بقميص أحمر. أثناء مرورنا عبر أزقة المدينة رأينا بعض النساء اليهوديات القادمات من الشمال، بشعرهن الأشقر وتسريحتهن ذات الخصلات المعقوفة.

الخميس 29 غشت / آب. خرجنا من طبرية في الثالثة والربع فجرًا، تحت ضوء القمر الذي جعل ظلَّ حصاني يرتسم عن شمالي، فيما نحن نسير على شاطئ البحيرة عند سفح الجبل متجهين شمالا صوب بيت أولا التي كنا نراها أمامنا على قمة الجبل. وإلى الأسفل على اليمين، بين المنحدر والماء، بضع شجيرات وزريبة خنازير برية. انطلق رفاقنا العرب يتلهون بإطلاق الرصاص على طيور الحجل، وقد تمكّنوا من إصابة أحدها. بعضٌ من طيور دجاج الماء تمضي منزلقة فوق ماء البحيرة الأزرق الذي زاد قتامةً مع انبلاج ضوء الصباح. انجرف الجبل الذي إلى اليسار واتّخذ شكلًا أكثر انحدارًا حتى صار كالحائط العظيم. كان هناك مدخلُ فجٍّ يفضي إلى جهة الغرب، قال لنا إسماعيل أغا إنّ فيه مجموعة من المغارات وحصنًا منحوتًا في الجبل. هناك بعض الخضرة في هذا المكان، وأشجار الزعرور عادت لتظهر ها هنا كما كان الحال عند شاطئ البحر الميت. مررنا ببعض الأكواخ ومجرى ماء. إنها مدينة طبرية. هناك بضعة منازل إلى يمين الطريق، يمشي السائر جنبها بعض الوقت، وإلى اليسار فجّ ضيق يسير في توازٍ مع الطريق، بجوانب قائمة من حجر بنّي اللون، ينتهي بمنحدر خفيف يمضي رويدًا في ارتفاع. أعشاب جافة صهباء طويلة السيقان مائلة إلى البياض تكسو الأرض، وإلى اليمين قطيع من الجمال ترعى ذلك العشب أفرادا وزرافات، ترفع رؤوسها نحونا في فضول ونحن نمرّ بها.

بلغنا مجرى ماء ثانٍ تنبت على جنبه شجيرات من الدفلى في باقات رائعة تحيط بالطريق من الجانبين. هنا تبدأ الطريق في الصعود بلا مواربة، وتتبعها الجبال والمنظر جميعه من خلفنا، حتى أنك متى استدرت ناظرًا خلفك وجدتَ بحيرة طبرية التي خلَّفتَها في الأسفل تبدو وكأنّها في مستوى الطريق. وشيئا فشيئا تتبدى الجبال للناظر صفوفا بلونها الأصهب وسلاسلها المتتالية كأنّها أمواج بحر.

توقفنا للاستراحة عند عين ماء جارية في ظل جرف صخري ذي أدراج بلونٍ كأنّه الصدأ. بعد قليل واصلنا سيرنا والأفق يزداد أمام البصر اتساعًا، فيما راحت بحيرة طبرية تختفي رويدًا خلف الضباب، وبدت قمة جبل طابور كالقبة مرتفعة عما يجاورها من جبال.

زافات: يقوم حصن زافات في أعلى الجبل، على منحدر من الأرض. الأزقة شديدة الضيق حتى ليتعذر على أحمالنا أن تمر منها. تجمع الناس للنظر إلينا، خصوصًا اليهود بقبعاتهم القبيحة. نزلنا عند أحدهم، وهو ممثل قنصلي لفرنسا، أنزلنا في حجرة صغيرة ذات سقف مقبّب، ينيرها مصباح من الزجاج معلّق بثلاث سلاسل. في المساء أجرينا فحصًا طبيًّا بطلب من امرأة يهودية طويلة القامة تعتمر غطاء رأس أحمر، قادتنا إلى حيث يرقد ابنها المنهك الشاحب من أثر الحمى. جلس مضيفنا على فراش ماكس وشرع يدخّن غليونه، ومعه ابناه اللذان جلسا إلى يساري.

جبال صهباء في مقدمة المشهد، تتناثر فوقها صخور سوداء تجعل منظرها يذكر بجلد فهد، وتمتد خطوطًا في بعض الأحيان فتجعلها أقرب إلى جلد النمر. أمّا الأوصاف التي قدمناها عن ألوان الأفق فتجتمع كلها في المشهد الذي يراه الرائي من هنا.

قضيت ليلة مريعة تعمرها البراغيث والبق وأصناف من الحكاك الأليم. ضقت صبرًا في نهاية المطاف فتناولت عباءة ماكس وغامرت باختراق المنزل حيث ينام أفراد الأسرة اليهودية لأنام في الهواء الطلق. كانوا جميعًا مضطجعين على الأرض وعلى بعض المرتبات في اختلاط. الأب يغط في ناحية والأم تتبول في أخرى وطفل يصرخ، وجو المكان مختنق بروائح إفرازات الأمعاء. اضطجعت إلى جوار جوزيف وساسيتي اللذين كانا نائمين على السطح، وكان هذا الأخير ملتفًّا في معطفه، فيما جوزيف متلفع بغطائه الصوفي. كان الجو باردًا برودة اقشعر لها جسدي فلم أذق للنوم طعمًا إلا في الصباح، حوالي التاسعة، حيث أغفيت لدقائق فوق فراشي الضيق، حتى إذا قاربت الساعة الحادية عشرة بدأنا نتأهب للرحيل. بدأ مضيفنا يحدّثنا عن أخطار الطريق، فهنا قتلوا هذا وهناك سلبوا ذاك أمواله ومتاعه، وهناك قتلوا رجلًا من الأتراك ومثّلوا بجثته، إلى غير ذلك من الحوادث. أما خفراؤنا فذهبوا إلى المسجد.

هؤلاء الناس شديدو التقوى أثناء السفر، ولا شك أنهم أرادوا أن يُخلوا ذمتهم حيال إلههم قبل هذه الرحلة التي لا أحسب كل واحد منهم إلا محدِّثًا نفسه بأنّهم ربمّا لن يعودوا منها جميعًا سالمين. وفي آخر المطاف انطلقنا بعد أن ألححنا على ساسة البغال بالتزام جانب الحيطة والحذر، ومن ذلك إزالة الأجراس عن بغالهم.

مضت الطريق المليئة بالأحجار في صعود تحت أشجار الزيتون. بدأ أحد رفاقنا في الغناء، وهو رجل ضخم الجثة ميال إلى المزاح أدرَد الفم، يمتطي فرسا عجوزًا صهباء. بعد ذلك شرعنا في الهبوط حتى وصلنا إلى سهل منبسط. هناك تلقى أبو عيسى وأبو علي من الخفراء وابلًا من الضرب لكونهما كالا لهم السباب. كانت حصة ثقيلة من العصا جعلتني أتندّر بها وقع عندما جلسنا نتناول طعام العشاء، فما كان من جوزيف إلا أن أجابني بكلمة بليغة قائلا: «إنهم أتراك فيما بينهم، فليقتلوا بعضهم بعضًا إن هم شاؤوا، ليس يهمنا ذلك في شيء». في السهل من حوالينا كانت الأعشاب محروقة، يفعل الفلاحون ذلك بها سمادا للأرض، فكان لون هذه من أثر ذلك مائلًا إلى السواد.

حوالي الساعة الخامسة وصلنا قبالة قرية جسر بنات يعقوب، حيث نصبنا مخيّمنا، كان الجسر على شمالنا، وأمامنا يجري النهر بين الأعشاب ونباتات البوص، وفيما وراء الجسر تظهر بقعة البحر، وكنّا قد رأينا قبل بلوغ المكان الذي نصبنا فيه مخيّمنا بعضًا من أكواخ البدو فوق المرتفعات التي تحيط بالبحيرة، وحلّ الليل وماكس يعتقد أنهم يراقبوننا.

إلى الناحية الأخرى من الجسر قافلة من الجمال متوقّفة هناك. الجمال كلها رابضة، والرجال يغدون ويروحون بينها بعباءاتهم وغلايينهم.

في صفد أخذنا معنا رجلًا طلب الانضمام إلينا، كان رجلًا هَرِمًا أبيض اللحية مقوّس الظهر، قد عدَت عليه السنون، يعتمر عمامة ضخمة وهو مدجج بالسلاح، كان تاجرًا في الخيل، يصطحب معه فَرَسًا عجفاء بيضاء اللون أثارت غرائز خيلنا جميعًا. روى لنا هذا الرجل أنه زار النمسا وكذلك بلاد فارس، اتضح لنا منه أنه رجل ذو تجربة واسعة، وهتف جوزيف بإعجاب: «يا له من رجل!» كان رفيقنا الجديد يأكل وحيدًا وهو جالس على

بساطه، ويعتني بفرسه ويؤدي صلواته، ولعلي لم أر في حياتي نظرة معبرة أكثر من نظرته وهو يحدث جوزيف عن الاحتياطات التي ينبغي اتخاذها في الليل، كان ساعتها مولّيًا وجهه شطر البحر، ويا لها من نظرة تبدّت حينذاك في عينيه!

ما أن انتهينا من تناول بيض السفر المسلوق حتى بدأ إسماعيل أغا يتحدث عن ضرورة متابعة السير، رغم أننا كنا قد اتفقنا على الإقلاع عند العاشرة. تذرّعنا بوجوب أن نترك للخيل والبغال فرصة للراحة، وأخيراً استسلمنا فلما كانت الثامنة حتى كنا ممتطين خيولنا، وقد ضحكنا كثيرًا أثناء تناول طعام العشاء ونحن نتصور إمكانية أن نطلق النار على بعضنا عشوائيًّا في الظلام، خصوصًا أنْ نصيب متاعنا أو أن نقتل أبا عليّ أو أحد البغال.

الظلام مطبق إن مدّ المرء يده فيه لا يكاد يراها، والأمتعة أمامنا يتقدّمها خفيران وفي بعض الأحيان ثلاثة، ووراءنا جوزيف وساسيتي وخلفهما التاجر المسنّ الذي سار يتفحص الظلام بعينيه الثاقبتين. أمّا باقي الحرس فساروا وراء الجميع وعلى الجانبين. قطعنا الجسر وبدأنا نتسلق طريقا مليئة بالأحجار، وداعبني النعاس حتى كاد يغلبني لنحو ربع ساعة، لكن الوقت ليس وقت نوم، فسرت مهتديا بكفل حصان مكسيم الأبيض، فيما مهرج الجماعة يرفع عقيرته بالغناء بصوت شجي، يلقي بالكلمات بينما الخيول تتعثر بين الحجارة. استقبلتنا بعد ذلك عقبة خفيفة الانحدار، فلما حلّت الساعة العاشرة ابيضّت السماء أمامنا ثم أشرق القمر. كنا نسير وسط طريق برّية تكسوها أشجار خروب من الضخامة بحيث يخالها الرائي أشجار تفاح، ومن حين لآخر منفرَج تتضح فيه الرؤية. أذكر أنني في لحظة من اللحظات أبصرت عن شمالي ما يشبه فجًّا يمضي في انحدار، ولا شك أن منظر هذه الطريق لن يكون إلا رائعًا في ضوء النهار.

انتشر ضوء القمر فأنار المكان، وسرنا بأسرع من ذي قبل، خصوصًا أن الطريق لانت بعض اللين. تناولنا قليلًا من الطعام حوالي منتصف الليل، وتابعنا طريقنا بين أشجار الخروب، حيث مررنا بعد ذلك بقليل بمحلّة بها سكان، فنبحَتنا الكلاب، ما جعلنا نلتزم الصمت المطبق. كنا ندخن غليونا من وقت لآخر، وقد جاءني إسماعيل أغا مرة بغليونه

الأسود ذي العُقَد والغلاف النحاسي، وتوقفنا لحظة ننظر إلى جذع شجرة بدا رائع الجمال في ضوء القمر. استمتعت كثيرًا بهذه المرحلة من السفر، رغم أن الجو كان باردًا برودةً أرغمتني على الترجُّل مرات متعددة والمشي لتدفئة أطرافي. أما ساسيتي فغلبه النوم حتى صار يتخيل أمامه سلّمًا حجريًّا ضخمًا.

طلع النهار لنجد أنفسنا نسير وسط أشجار الخروب والعناب والخضرة المنتثرة هنا وهناك في غير ما انتظام، مضفية إلى المكان مسحة من الجمال. وبدأنا النزول صوب السهل فإذا بالشمس تشرق فجأة فتلهب أشعّتها وجهي حتى احمرت منه الوجنتان، مما جعلني أسارع بالعودة إلى صهوة حصاني. كنا قد بلغنا منتصف الطريق تقريبًا، ولا تزال أمامنا نحو سبع ساعات من السير. اقترب التاجر العجوز من جوزيف وهمس له بتحذير لم يجد فيه مرافقونا الأتراك ما يضحكون منه، إذ قال له: «أمامنا ساعتان سيجدُّ فيهما الجِدُّ يا صاح...».

التقينا امرأتين من نساء البدو بين الأشجار، بدا عليهما الخوف منا، اقترب منهما التاجر العجوز وسألهما من أي القبائل هما، فلما اتضح أنهما من جهة الشمال، اطمأنت قلوبنا بعض الشيء لأن الحذر إنما ينبغي اتخاذه من قبائل مرتفعات بلاد حوران الواقعة إلى اليمين، التي جعل خفراؤنا يسيرون بيننا وبينها صفًّا، واحدًا تلو الآخر، وقد وضع كل منهم بندقيته على فخذه استعدادًا لكل طارئ. أما أنا فملأت جيبي رصاصًا كي أستطيع استخدامه بسهولة في حال وقوع مواجهة.

سرنا لسبع ساعات حتى العاشرة صباحًا وسط تلك الطريق البرية الشّاسعة، تواكبنا إلى الشمال جبال يعمّ الثلج قممها، وإلى اليمين أرض تمضي في ارتفاع فتختفي عن أعيننا الأفق البعيد عند أرض حوران.

قبل ساسا بنحو ساعتين هناك آثار طريق قديمة كانت تمر من هناك، تبدو تارة وتختفي أخرى تحت أكوام من الحجارة يمضي فوقها السائر متعثّرًا، وصخور مستوية قد رصّتها يد الطبيعة واحدة جنب الأخرى، فيما الحجارة تزداد تكاثرًا.

بدت لنا ساسا في الأفق البعيد، منزوية وسط الخضرة، وبلغناها عند العاشرة، بعد أن

أشبعنا جوزيف لومًا وتقريعًا بسبب الطريقة غير اللائقة التي كان يقود بها فرسه. نصبنا مخيمنا تحت شجرة خارج البلدة، والماء يحيط بنا من كل جانب، وإلى جوارنا قافلة جعل أهلها يوزعون بينهم لحم جمل.

استيقظنا عند الرابعة عصرًا، فذهبت أغسل وجهي وأطرافي في ماء الجدول الذي كان يجري من خلفي، الذي كان التاجر العجوز نائما إلى جواره. وما لبث الليل أن أرخى سدوله، فقام خفراؤنا يصلون، ثم تناولنا طعام العشاء واضطجعنا للنوم.

بدأ النعاس يستولي عليَّ حين صرخ جوزيف قائلا: «ألا تسمعونهم؟ إنهم يقتتلون!» كان صوت الرصاص يُسمع بالفعل من ناحية الجبال إلى الشرق من موضعنا. كانت الساعة إذ ذاك نحو العاشرة والنصف، فلما انتصف الليل قمنا نتابع سيرنا. نباح كلاب يتناهى إلينا، وقمر أحمر يرتفع في كبد السماء، هلالا متّكئًا على جنبه، أقل جمالًا وبهاء من نظيره بالأمس، قطعنا في ضوئه جسورًا متعدّدة، وكانت الطريق طيبة فأسرعنا في المسير.

بعد حوالي ساعتين من المسير بلغنا خان الشيخ، وهو عبارة عن حصن كبير أو خانٍ للقوافل على يمين الطريق. سرنا لا يوقفنا شيء سوى مجاري الجداول والأنهار العديدة، حيث ينتظر بعضنا بعضًا كلما قطعنا مجرىً منها حتى نتجمَّع ثم نعيد الانطلاق.

بدأت النجوم تشحب في السماء، وبدأ نور النهار يطلع فيما نحن نسير منتشرين على صفحة الطريق. رأيت هذا المشهد فذكرت أشعار سيرفانتس... إلى يسارنا بدت الجبال بلون رمادي داكن، تعلوها عمائم لامعة من الثلج المتراكم على القمم. التقينا بضعة جمال، وأدركنا أننا نقترب من مدينة كبيرة. كان الرفاق جميعًا منشرحين، وشرع البهلوان في دغدغة حصانه ليجعله ينط متقافزا ويحاول أن يعض، وضحكوا كثيرًا من لهجة أبي عيسى القادم من بيروت.

كانت الأرض تمتد من حولنا فسيحة جيدة الحرث والتسميد. مرت بنا قافلة صغيرة من جمال تحمل جلودًا، وجلسنا تحت شجرة نستريح وننتظر متاعنا.

بعد ثلاثة أرباع الساعة من المسير بلغنا خط الخضرة والبيوت التي كانت تتراءى لنا قبل ذلك بزمن، فدخلنا في ضاحية من المدينة لا نهاية لها، جعلت حوافر خيولنا تنزلق فوق بلاط أزقتها الأملس. أكوام من القمح موضوعة أرضا، وحلاجو قطن وصباغون ومساجد وعيون ماء وأشجار تتدلى أغصانها فتظل بالخضرة ما تحتها من ألوان متحركة جيئة وذهابًا. رأينا بعض الحرس الأتراك في لباس جميل، ومقبرة تمر الطريق من وسطها، أغلب قبورها ذات سطح محدّب على شكل اسطوانة.

دخلنا المدينة فسرنا عبر أزقة ملتوية ضيّقة، ازدادت ضيقًا مع تقدّمنا في السير حتى لم تعد خيولنا تستطيع المرور. وأخيرا بلغنا النزل في دمشق، حيث التقينا السادة ستريبك وهوسون ومولر.

دمشق: قضيت فترة ما بعد الظهر من يوم الأحد هذا في النوم.

الاثنين، الثاني من الشهر: زرنا - بصحبة هؤلاء السادة وجندي انكشاري من حرس القنصلية الفرنسية - عددًا من بيوت اليهود. أخذت حمّامًا في الصباح، وحينئذ جاء إسماعيل أغا يودعني. تجمعت الدموع في مآقيَّ وأنا أنظر إليه للمرة الأخيرة مودّعًا. قمت بعد ذلك بجولة في السوق الذي وجدته في غاية الجمال.

شخصيات: يوسف العجوز، من فندق تدمر في دمشق. رجل قميء ضئيل الجسم، يرتدي عباءة بلون التراب تزينها زهور بنفسجية شاحبة، ويعتمر عمامة ضخمة متسخة، تعلو أنفا بارزا وحاجبين كثيفين، في منظر يبعث على الضحك. لكنني لم أر حركات أكثر خفة ورشاقة من حركاته وهو يشرح لستيفاني كيف أن بعض الرجال، أيام إبراهيم باشا، احتالوا للدخول تحت أطلال القدس بأن أرسلوا كلبا أمامهم يدلهم على الطريق بحدسه... شدتني حركاته وتعابير وجهه وهو يتكلم حتى تابعت القصة دون قصد إلى نهايتها.

العجوز اليهودية البدينة التي رأيناها يوم الاثنين الماضي، تشبه فلور، مع بعض الاختلافات: جبين محلوق وحاجبان مصبوغان دقيقان قد حفّتهما الموسى، وتجاعيد كثيرة حول عينين لهما نظرة تشع طيبة، تطالعانك مصعِّدتين من أسفل إلى أعلى، وقباقيب تزينها

مربعات صغيرة من الصدف، وبطن منداحة مندفعة إلى الأمام. كانت هناك أيضا امرأة عجوز نحيفة، لها من جانبي وجهها ريش نعام في محل الشعر. كانت تعمل في الباحة، تحت أقواس الممر الخارجي. شيشة ونارجيلة، وخادمة حبشيّة نحيفة مليئة بالحيوية بأنف مثقوب.

من بين كل الباحات التي أتيحت لنا رؤيتها، كانت باحة الخان الذي نزلنا به أجملها وأكثرها نضارة وخضرة، بشجيرات من العنب البري وأخرى من الدفلى، بدت لنا أمامها باحات المنازل الأخرى التي زرناها شاحبة جافة، رغم أن الباحات جميعًا يتوسطها صهريج ماء. وأجمل الغرف هي الواقعة في الطابق الأرضي، رغم أن أكثرها غير مفروش. نقوش الخشب تتخللها قطع من المرايا، والأبواب تغلق بنظام من الخشب المتقاطع على شكل صليب، ومثلها النوافذ، أمّا أعمدة السقف التي لا تزال تحتفظ بشكل جذوع الأشجار فكانت مطليّة بالأزرق والأخضر ومزيّنة بنجوم أو خطوط مذهبة. بعض السقوف كانت مزيّنة كذلك بما يشبه قُمعًا مقلوبًا مضلّعًا تغطي قطع المرايا أضلاعه، ما يعطيه شكلًا أشبه بوردة الكنيسة. الغرف كلها - عدا استثناءات قليلة - يتوسطها صهريج ماء من رخام ملون مزين بالفسيفساء. أما زينة بعض الغرف فكانت من التعقيد بحيث تضاهي أحيانًا أسلوب الزينة المعروف أيام لويس الخامس عشر، بثريّات من زجاج البندقية وفجوات في الحائط جُعلت فيها أسِرَّة ومناديل وبُسُط، وكلها بلا أبواب، وأما أجمل ما في تلك الغرف فهو المصطبة التي تحمل السرير، بحيث يرتفع بدرجة عن باقي أرضية الغرفة التي توجد في مستوى الأرض الخارجية. اللون الأزرق طاغٍ على ما عداه من ألوان، وتشجيرات ملوّنة ملصقة بالمصاريع، تعطيها زينة من النتوءات ومن الألوان معًا. أمّا المخادع الواقعة في الجزء الأسفل من البناية (وهي بارتفاع قامة إنسان، وبعضها ذو سقف مزين بشراشف من مثل ما هو مستعمل في تزيين مساجد القاهرة)، فقد أفرطوا في زخرفتها بلوحات تحمل صورا لمنظر طبيعي قبيح، بمنزل أبيض من كل جانب، وحديقة في المنتصف وشجرة سرو في وسط هذه. وأما الممشى في الأسفل تحت شرفة السطح فمطليّ بالألوان الفاقعة نفسها والرسوم القبيحة ذاتها، التي يبدو لي أنها جميعًا قد جرى تجديدها مؤخرا. في المنزل اليهودي الأول الذي زرناه رفقة السيد ستريبك ومن معه، جاءت فتاة صغيرة شقراء جميلة لتتفرج على

الأغراب الذين حلوا بيت أسرتها، فبقيت طيلة وقت الزيارة معنا. أما في البيت الملاصق للثاني الذي زرناه، وأعني بيت السيدة البدينة (وهو في ما أعتقد في ملك صاحب الخان الذي كنا ننزل فيه، والذي غلبه كارلو البارحة)، فقد رأيت فيه، في الطابق الأول، في أعلى السلم، حاجزا صغيرا من الخشب يقف دون المدخل بارتفاع نحو ست بوصات، يتعين أن يتخطاه المرء ليلج إلى الردهة الصغيرة التي تليه، والتي فيها حيز صغير مخصص لوضع نعال الضيوف.

ليس هناك ما هو أقل إثارة للاهتمام من بِيعة اليهود، التي زرناها صباح السبت الماضي. لا يُسمح للنساء بالدخول، بل يبقين عند الباب في باحة المعبد، بملابسهن البيضاء، فيما الرجال والصغار يلجون إلى الداخل، حيث تجدهم جالسين على مقاعد خشبية يرتّلون كلامًا في كتاب أمامهم والرأس مغطاة بطرحة من القماش. في وسط المكان مصطبةٌ يقف عليها راهب وهو يتمايل بالطريقة نفسها التي رأينا عليها اليهودي عند حائط المعبد في بيت المقدس، وأمامه، على طاولة أو مذبح لم أتبيّنه جيّدًا بسبب الزحام، آلتان أو ثلاث من الفضة على شكل أنابيب نارجيلة، تتدلى منها سلاسل صغيرة من الفضة كذلك.

فجأة بدأ الجميع يصرخون بأصوات عالية، وكان إلى يميني طفل صغير في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، كان يصرخ بكل ما أوتي صدره الصغير من قوة، وهو يقرأ واقفا في كتاب كان يقرأ فيه معه رجل جالس إلى جواره لعله أبوه. بعيدًا من هناك إلى ناحية اليمين، أبصرت رجلا هَرِمًا أدرد متكئا إلى الحائط، بعمامة سوداء ونظارتين. ولست أدري من كان يقف خلفي، لكني كنت أحس فوق جلد رقبتي حرارة نفَس ساخن يخرج في قوة وانتظام من صدر إنسان مؤمن يستفرغ جَهده في الترتيل.

ليس لعمائم اليهود هنا شكل الشريط الملتوي الذي لمثيلتها في القدس وطبرية وصفد، بل بدا لي أن ثمة بعض الحرية هاهنا، حتى أني رأيت بعض العمائم الشبيهة بعمائم الأقباط، كما أني لم أر القبعة ذات الشكل الهلالي التي رأيت النساء يعتمرنها في بيت المقدس، بل حلّ محلّها هنا شعر اصطناعي من الحرير المفتول، يتدلى غليظًا كثيفًا خلف الظهر. وقد رأينا في

أحد منازل اليهود ضفيرة من مثل هذه تغطي الظهر كله وتنزل حتى أسفل الساقين، فكأنه ذيل حصان، ينتهي بكرات ثقيلة سوداء مثله.

الحياة في دمشق تتركز كلها في السوق، والأسواق هناك عامرة تعج بشرًا وبضائع وضجيجًا بقدر ما تكاد طرقات المدينة وأزقتها الصامتة تخلو من المارة. والناظر إلى المشهد المتكون من أردية الرجال الوردية أو الخضراء أو الزرقاء، وأكوام الأثواب الحريرية الملوّنة، كل ذلك تحت أشعة شمس ناصعة، يرى أمامه لوحة ملونة تنشرح لها النفس انشراحًا. وأمام المحلات جلس التجار يدخّنون الغليون ويستقبلون الزوار والزبائن.

المحلات تغلق أبوابها، وفي وسط الممر سار بائع الشربات وبائع الثلج ومُكري الغلايين يحمل موقده الفحمي ليشعل غلايين زبائنه التي ليس فيها إلا القليل من النوع التركي. ومن حين لآخر ينتصب بين المحلات حمام، ترى فلّاحًا لا يستر جسمه سوى إزار يحيط بخصره يخرج منه متّجهًا إلى أقرب محل لاقتناء بعض السكر لخواجة يغتسل في الداخل. في إحدى الساحات ضريح لأحد الأولياء، ألقيت نظرة من خلال الشباك فأبصرت عصيًّا وعكاكيز وقبعات وطرابيش وأسمالًا من كل صنف معلقة إلى الجدار. رأيت كذلك درويشًا يتجول عاري البدن، عبارة عن رجل مجنون لا يكفّ عن الصراخ ورسم التعابير الغريبة على صفحة وجهه، تقترب منه النساء العاقرات اللواتي يرغبن في الإنجاب فيلثمن عضوه الذكري. بل لقد قيل لنا إن الأمر كان قبل زمن قليل يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ كان الرجل يجامع هؤلاء النسوة في وسط السوق، فإذا شرع في ذلك أحاط به الأتراك هو والمرأة وستروهما بأرديتهم عن أعين المارّة.

انتهينا أخيرا إلى محل صديقنا الشيخ عبد القادر الذي كان في نهاية سوق الخياطين إلى الشمال.

رجل شاب أصفر اللحية رشيق الحركة أنيق اللباس، بعمامة بغدادية وعباءة زرقاء، يحل بنا زائرًا عند كل مساء، يحمل خلف ظهره في كل مرة تحفة من التحف. كان متى لم يجدني هناك طلب أن يُحشى له غليوني تبغًا ثم يجلس فوق فراشي يدخن بانتظار عودتي. وكان له

غلام حبشي أخرق مخصي، يحمل معه من بلاده إضافة إلى الإخصاء ندوبًا كثيرة تلقاها في المعارك.

لعل أكثر ما يثير الانتباه في أسواق دمشق هو وسامة الفتيان ما بين الثامنة عشرة والعشرين. الخياط الذي صنع لي قميصي الحريري شاب يتحدث الفرنسية، وقبله اشتريت الثوب من بزَّاز أوصوني به في القنصلية، عرض علينا أكوامًا من القماش الحريري في متجره الواقع في خان يطل على السوق. الرجال ذوو قامات تميل إلى القصر، بشعر فاحمٍ وعينين سوداوين وبشرة بيضاء، لا شك أن الواحد منهم لو حلَّ بباريس للقي هناك نجاحًا مذهلا! ولو كنت أنا نفسي امرأة لما ترددت في أن أقوم برحلة ترفيهية إلى دمشق!

في سوق الحلوانيين، اشترينا بعض المربى من رجل طويل القامة نحيف البنية أزرق الثوب، يقف في فتحة باب متجره بين العلب والقوارير، وعلى صحن أمامه وضعت قطع من حلوى «راحة الحلقوم».

أهل دمشق دمثو الأخلاق لينو المعشر على وجه العموم، وقد تغيروا كثيرًا حسب ما يزعم جوزيف، فصاروا أقل تطرّفًا وأقل نزوعا إلى العداء.

يوم الاثنين، صبيحةَ حلولنا بالمدينة، جاء رئيس كهنة دير القديس فنسان دو بول يزورنا، بعد أن سمع بأنّ هناك فرنسيين ضيوفا في الخان. رجل بدين قصير القامة عادي المظهر خجول، ذكرني منظره بمعلمي في القسم السادس، السيد غيرار. وكان يعتمر عمامة سوداء تشبه كثيرًا عمائم اليهود، وقد سألته عن الفرق بين هذه وتلك فلم يدل إلي بجواب، لكنه أفاض في مقابل ذلك في رواية قصة الأب توماس الذي قتله اليهود، وكيف أنهم فيما روى ذبحوا الرجل ثم قطعوا رأسه وسحقوها في هاون ضخم.

ليس في دير القديس فنسان دو بول ما يستحق الرؤية ولا الذكر. بينما نحن هناك حلَّ بالمكان أسقف حمص وحماه، يتوكأ على عصا مما يستعمله الانكشارية. تقدم رئيس الدير منه فقبل يده، وجلسنا نتحدث في شأن المناطيد التي طلب مني الأسقف شروحا بشأنها. وقد بدا لي هؤلاء السادة، في ميادين المعرفة جميعها تقريبا، على جانب محترم من الجهل.

ذهب بنا الأسقف لزيارة بيت مسيحي قال إنه أجمل البيوت المسيحية قاطبة، فوجدناه أقل جمالًا من بيوت اليهود بكثير، علاوة على أن الرسوم الجدارية فيه صاخبة فاقعة أكثر من التي في تلك.

عند نسّاج الحرير رأيت فتىً أشقر ضخم الأنف يتحدث الإيطالية، كان واقفًا فيما أبوه العجوز جالس يدخّن غليونه، ورأينا هناك صهريج ماء ذا شكل مستطيل.

خرجنا من المدينة من بوابة «باب شرقي»، التي تقع إلى شرق المدينة، وهي مسوّرة ومذهبة كمثيلاتها في بيت المقدس، وبقايا الباب التاريخي لا تزال بادية للعيان، يعرفها الناظر من حجارتها الضخمة، وقاعدة الأسوار الحديثة الخفيفة القائمة اليوم، والمبنية من الطين والحصى، تقوم على الأساسات القديمة. في الخنادق الجافة المليئة ترابا جِيَفٌ لكلاب التهمت أخواتها الضالة أجزاء منها، وكلاب صُفر تتجول في المكان، وجو قائظ وشمس محرقة.

المقبرة المسيحية: هي عبارة عن مغارات جماعية كانوا يدفنون في كل منها أفراد الأسرة جميعًا، وفي بعض الأحيان أفراد القبيلة قاطبة، وهي كلها مهدّمة، تنبعث منها رائحة الجثث المتعفنة. أطللنا من فتحة إحدى تلك المغارات فرأينا في قاعها أكواما من البقايا البشرية المتناثرة، وجثة كلب ضخم لا شك أنه دخل إلى هناك منجذبًا إلى رائحة الجثث فلم يستطع الخروج بعدها إلى أن مات مكانه، وخلف ذلك كله جثّة محنّطة تبدو بعض ملامحها الجامدة المتحجرة من خلال مِزَق كفنها المتلاشي. كانت هناك جماجم بلا أجساد وأجساد بلا رؤوس، وفي وسطها امتد شعر امرأة طويل أشقر يلتوي كالأفعوان فوق التربة الرمادية.

بعد أن سرنا قليلا أرونا أطلال كنيسة قيل لنا إنها بنيت في الموضع الذي سقط فيه القديس بولس عن حصانه حين تبدى له الملاك. سرنا بعد ذلك جنب حائط البستان الظليل. الأسوار مبنية بقطع كبيرة من الطين المعجون بالحصى والمجفّف، يضعونها واحدة فوق الأخرى، والريح تنتزع منها التراب فتحيله غبارا يعج به الفضاء فوق الطريق.

وصلنا قرب أسوار المدينة، عند مستنقع طارت من جواره بعض الغربان عند مقدمنا،

فوجدنا هناك مكانا جميلا يكتنفه الظل ويعمه الصمت ويهب فيه هواء لطيف. ما أجمل الخضرة في أرض المشرق وأبهاها منظرا! على يسارنا نبع ماء، وبجواره صخرة جلس عليها رجل شرع يحدثنا بالعربية وهو يمد نحونا يديه. كانت شفتاه المتآكلتان من أثر المرض المرعب تنفرجان فتبدو حنجرته من خلالهما، وكان جسمه مكسوًّا بالبثور والتقرحات المريعة، أما الأصابع فكان يتدلى في مكانها ما يشبه أطراف ثوب بالٍ خَلِقٍ، هي ما تبقى من جلدها، وقد حسبتها في أول الأمر أطراف كمه، فلم أتبين الحقيقة المرعبة إلا بعد أن وضعت نظارتي على عيني. كان المسكين قد جاء إلى هناك ليشرب.

دخلنا بعد ذلك إلى ما يشبه مزرعة أو مكانًا لتربية الدواجن، رأينا فيه خمسة رجال أو ستة، وثلاث نساء، جميعهم مصابون بالجذام. كانوا جالسين هناك يستنشقون الهواء العليل، أحدهم بأنف قد أكل المرض أرنبتها بالتمام كأنّه مصاب بالجدري، ووجه مليء بالقروح، وآخر ببشرة محمرة كأنّه حرق بالنار، كنا قد رأينا رجلًا مثله قرب سوق العطارين، وثالث بوجه شاحب وجسم أخضر بلون العشب تكسوه القروح. كانوا جميعًا يئنون، رجالًا ونساء، في اختلاط لا فصل فيه بين جنس وآخر إلا بمقدار ما يجده كل واحد من ألم. أعطيناهم بعض المال فارتفعت عقائرهم بالدعاء لنا، وأذكر من بينهم على الخصوص تلك المرأة التي ذهب أنفها فكأنه مجدوع، والغرغرة الرهيبة التي تصدر عن حنجرتها حين تروم الكلام. يعيش هؤلاء التعساء منعزلين عن العالم، يداوي بعضهم بعضا ويعتني بعضٌ ببعضٍ دون أدنى مساعدة خارجية. في أوائل أطوار المرض يكون الألم شديدًا، لكن الشلل يأتي بعد ذلك تدريجيًّا. وما أظن أن هناك شيئًا أشد وقعا على الواحد منهم من أن يرى صورته في مرآة، وليت شعري كيف يا ترى يكون حالهم لو كان على جدران أكواخهم مرايا معلقة...

ذهب بنا كبير الكهنة أيضا إلى كنيسة مبنية في منزل الأب توماس. في غرفة الراهب لوحة تمثله، شيخا بلحية بيضاء، وخادمه الذي قُتل معه يقدم إليه فنجانا من القهوة، وفي الكنيسة لوحة أخرى عليها كتابة تشير إلى يوم مقتله وتذكّر بأن اليهود هم من قتله. والمكان ملك للرهبان الأرمن المتّحدين.

القنصل الفرنسي، السيد فابيين، رجل بدين ثقيل، ببطن ضخم منداح، لا يؤمن بشيء في الدنيا إيمانه بلحم العجل، ولا حديث له إلا في لحم العجل ووسائل الرفاهية المادية، معجب إعجابًا شديدًا بالملك لويس فيليب، يفضل أن يكون مكان المارشال سولت على أن يكون مكان موليير، ويتحدث الإنجليزية إلى خادمه حين يتناول الطعام. مستشاره السيد غارنيي، رجل أمرد أصلع قميء كأنّه امرأة عجوز، أطلعنا على صور خليعة من بلاد فارس. وكما يحدث في كل البلاد فإن الهدف الداعر لا يترك للطبيعة مكانًا، فترى الرسام سعيًا منه إلى إبراز الأعضاء الحميمة يجعل شخصياته تتخذ أوضاعًا لا يصدقها عقل، فيا له من درس رائع في الجماليات يمكن للمرء إعطاؤه انطلاقًا من الرسوم والكتب الداعرة! أذكر من تلك الرسوم واحدا يمثل امرأة مضطجعة فوق رجل وشعرها المنسدل يغطي ظهرها، فيما عجيزتها العارية تكاد تملأ مساحة اللوحة جميعًا، في مبالغة تنم عن عشق جارف للمتع الحسية. أرانا السيد غارنيي من جهته مجموعة من محابر المداد ومن العلب الفارسية، عليها رسوم تمثل مشاهد قنص، تظهر فرسانا بلحى عظيمة يحملون رماحهم، وكلابًا ومناظر طبيعية وأشجارًا وصخورا وجداول ماء يتقافز الفرسان فوقها بوجوه صارمة وهم يحثون خيولهم على الجري. كما أرانا كذلك إطارين صغيرين من الخشب مما تُحفظ فيه المخطوطات. أمّا الأول فعليه رسم يمثل لحظة وضع، حيث تظهر المرأة التي وضعت حملها ترتدي سراويل قصيرة لصيقة بسيقانها، وهي مضطجعة على ظهرها في وضعية توحي بما عانته لتوّها من ألم وما تستشعره الآن ذاته من سعادة، في حين وُضع الطفل الوليد في صحن كبير، وأحاطت به وأمّه مجموعةٌ من النساء رفعت إحداهن ذراعيها إلى السماء كالمتضرعة (ولعلها ترجو أن ترزق هي أيضا بولد)، في حين أشارت لها أخرى تضع سبابتها على طرف فمها وكأنها تقول احذري فالأمر مؤلم. أما الإطار الثاني فعليه لوحة تمثل عملية ختان، التي تقوم بها امرأة، في حين تمسك امرأة أخرى بطائر من البط تلهي به الطفل، وخادمة تطوف بالشربات على الحاضرين. واللوحتان معا مليئتان بتفاصيل ساذجة من تفاصيل الحياة اليومية، في أسلوب يذكّر برسوم القرون الوسطى في أوربا، وإن تكن من حيث تقنيتُها أبرع تصويرًا وأعقَد من هاته بكثير. والخلاصة أنها رسوم تحمل على الاستسلام إلى الأحلام، ولقد وددت لو أنها

كانت لي فأحتضنها وحدي في ركن من بيتي قرب المدفأة في ليالي الشتاء الباردة.

أمس جلسنا في مقهى يقع قرب ضفة النهر. كان هناك شلال ماء، وطفل تجرد من ملابسه جميعًا ودخل النهر يريد الإمساك ببعض السمك. أشجار تحيط بالمكان، وسقيفة مصنوعة من أغطية مليئة ثقوبًا جلسنا في ظلها. ماء النهر يشبه ماء نهر الأردن، والمكان قرب جسر في ظاهر المدينة، حيث دخنا الشيشة وشربنا ماءً بالسكر والثلج في أكواب مزخرفة.

يوم السبت 7: خرجنا عند الساعة الثالثة، فاتبعنا مسارًا دائريًّا بين دران من التراب تحيط ببساتين تلقي علينا بظلالها. كثير من أشجار الجوز والليمون وغيرها من الشجر المثمر، تحيط بها خضرة داكنة تحت ضوء بارد. ريح تهب ومياه جارية وطاحونة على قارعة الطريق، لها باب كبيرة تذكّر بأبواب مخازن القمح في مقاطعة شمبانيا الفرنسية. مرت بنا بعض النسوة الملثمات قادمات من حيث لا أدري وذاهبات إلى حيث لا أدري. جو من الحزن والمرارة، لا شك أن مبعثه صمت تلك الأزقة الخالية التي يرتفع الغبار في هوائها متلويًا، والخضرةُ القاتمة والظلال المنتشرة.

بلغنا أخيرًا مكانًا به أطلال مسجد، فسرنا جنب حائط، ثم انعطفنا إلى اليسار وشرعنا نصعد جبل الصالحية.

في أعلى الجبل ضريح مهجور، مررنا قبل بلوغه عبر فجّ يحيط به الصخر من الجانبين، وتهب فيه ريح بلغت من الشدة أن ارتفعت لها مسدساتنا على ثقل معدنها. من هناك تبدو دمشق بأكملها، مدينة بيضاء بمآذنها الرفيعة وسط الخضرة المحيطة، ولها من أحد جوانبها امتداد على شكل شريط طويل أبيض، هو الضاحية الكبيرة التي دخلنا منها المدينة عندما بلغناها قادمين من يافا. وحول تلك الخضرة تمتد الصحراء وفيها وراء هذه سلاسل الجبال. حاولنا أن نعود من طريق مختلفة لكننا ضللنا الطريق فانتهينا إلى حائط بستان اضطررنا من عنده أن نعود أدراجنا لنتبع طريق بيروت المرصوفة، فلما أفضينا إلى دمشق دخلنا المدينة وسرنا يرافقنا نباح الكلاب حتى بلغنا مكاننا عند غروب الشمس. الكلاب هناك سمينة تعيش بكل طمأنينة وتحتل أزقة المدينة، فتجد منها عند حلول الليل في كل زقاق خمسا أو

ستا تتجول. وقد رأينا اليوم كلبة اضطجعت وسط الطريق ترضع جراءها دون أن يزعج راحتها أحد.

ما أن يرخي الليل سدوله حتى يعمدون إلى الأزقة يغلقون بواباتها. وقد اضطررنا، عند عودتنا من بيت القنصل يوم تعشينا عنده، إلى طرق خمسة أو ستة منها، لكن أجمل ما في الأمر أنهم يفتحونها سريعًا، ويعطيهم العابرون ما تيسر، فمن شاء أعطاهم عشرين مليما ومن شاء لم يعطهم شيئًا.

في أقصى سوق العطارين، عند الشارع الذي يفضي إلى سوق الخياطين، ونحن ذاهبون عند صديقنا الشيخ بندر، توجد مقهى عند منعطف من الطريق فيها طاولة بلياردو. كان هناك جماعة من الأتراك جالسين على مقاعد بلباسهم الأوربي وهم يرقبون حركة الكرات على الطاولة، فيما رجل عجوز فانٍ يسجل النقاط. ها هي أوربا في آسيا، تدخلها عن طريق البلياردو ومقهى الحي وبول دي كوك وبيير جان دو بيرانجي[1] والصحف اليومية. إنها الحضارة تدخل البلاد! ليت شعري كيف سيكون حال المشرق غدًا... لعله بانتظار البدوي ليبعث فيه الحياة من جديد.

عصر اليوم، وفيما نحن نهم بالخروج على خيولنا، جاءنا كبير كهنة دير القديس فانسان دو بول، فجعل يشتكي لنا من مسيحيي المشرق ومن الرهبان الأتراك على وجه الخصوص، قائلا إنهم أتراك أكثر مما هم مسيحيون، وإن رابطة القومية عندهم أقوى وأمتن من رابطة الدين، يقتطعون من كل ميراث، قبل الورثة والدائنين، مقدارًا يصل إلى الثلث ويناهز النصف في بعض الأحايين، ناهيك عن الجهل المريع الذي يعيش فيه أولئك الرهبان الأتراك الذين يفوقهم تلاميذ كنيسته هو في زعمه علما، والتأثير الطاغي الذي تتمتع به النساء في البيوت المسيحية، تحت ذريعة أنهن من يأتين بالأطفال. أمّا المسلمون فلا يشتكي من جانبهم شيئا، بل لم يقل فيهم على العكس من ذلك إلا خيرا.

بعد موت الأب توماس مباشرة قام رجل ضرير بنظم قصة مقتله في قصيدة جعل

---

(1) بيير جان دو بيرانجي (1780 ـ 1857) أحد كتاب الأغاني الفرنسيين الأكثر شهرة في القرن التاسع عشر بباريس

ينشدها على أبواب المنازل ويتعيش من ذلك. والحق أن هناك نسخا كثيرة من هوميروس في تلك البلاد، يجوبون الأرض منشدين قصصهم، متمتعين باحترام الناس ورابحين من مهنتهم تلك مالا كثيرًا، ذلك أن الشيخ البدوي يحب كثيرًا أن يجلس إلى باب خيمته يسمع القصص أو يرويها، في عشق جماعي لكل ما هو مستغرب عجيب، ناتج عن جموح في الخيال يجعلني أجزم بأن شاعرا كبيرا لا شك سيتمتع في هذه البلاد بمقدار من الشعبية بين الناس العاديين لا يحلم به نظيره عندنا مهما جادل المجادلون في ذلك.

المسيحيون المارونيون ليسوا خيرا من الدروز، وهم لا يتوانون عن أن يردوا لهم الصاع صاعين. فإذا أحرق لهم الدروز قريتين على سبيل المثال أحرقوا هم كذلك قريتين درزيتين، وقد يحرقون في بعض الأحيان أربعا.

ضبط السيد غويو في الأيام القليلة الماضية غلامين اثنين من تلاميذه، في الثانية عشرة من عمرهما، وهما يمارسان اللواط قرب باب الدير، وسيعترف له أحدهما بأنه اكتشف ذلك مع رجل مسيحي مارس عليه الفعل نفسه مقابل عشرين قرشًا. وظاهرة اللواط منتشرة هنا - فيما يقول رئيس الكهنة - انتشارا كبيرا: «هناك أعداد كبيرة من الرجال، وليس معهم ما يكفي من النساء».

في الخامسة عصرًا خرجنا في نزهة في الريف المحيط بالمدينة، فسرنا باتجاه الشرق بين البساتين والأشجار. كان الطقس جميلا، وركضنا بالخيل من حين لآخر. كانت الجبال ذات اللون الرمادي الذي يختلط فيه الذهبي بالأزرق تنتصب فيما وراء المدينة، بلونها المتقاطع مع لون الخضرة عند سفوحها. في طريقنا مررنا ثانية بالمقبرة المسيحية، وإلى جوارها ضريح لرجل مسلم هو في الحقيقة مسيحي مرتد حدثنا عنه السيد غويو فيما قبل ولم يستطع تذكّر اسمه. وجدنا هناك بعض الجمال واقفة، فأطعمنا بعضها من خبز الذرة. فعلت ذلك وإحساس بالحزن يعتريني إذ ذكرت أنني قد ودعت الصحراء إلى غير رجعة وأني ربما لن أستمتع بمرأى الإبل ثانية أبدا.

دمشق، الثلاثاء 10 سبتمبر / أيلول، الساعة التاسعة والنصف مساءً.

عشية مغادرتنا لدمشق، خرجنا صباحًا في جولة أردنا أن نجعلها شاملة للمدينة، لكن ذلك كان متعذّرًا بسبب كثرة البساتين وانقطاع الأسوار التي كان وجودها ينحصر عند الجانب الشمالي من المدينة وحده. قطعنا طريقاً برية يخترقها نهر وجدنا جنودا يغسلون فيه ثيابهم، وقد نشروا فوق العشب قمصانهم ذات الأكمام العريضة. مررنا ثانية أمام المقبرة المسيحية وبيت مرضى الجذام. كان هناك الكثير من السناجب تتقافز بين أغصان الأشجار، أحدها جالس في رصانة يقضم جوزة، وآخر نط من الحائط إلى الشجرة حين مررت قرب الحائط.

الخميس، عند الساعة الواحدة، خرجت من دمشق صحبة السيد كورفوازيي Courvoisier وترجمانه جيوفاني، رجل طويل القامة ذو وجه يشبه وجه طفل صغير. رأيت مكري بغال مسيحيًّا يرتدي تباهيًّا قبعة إفرنجية فوق عمامته. الانكشاري البدين الذي كان برفقتنا فارقنا عند جبل السلامة. اختفت معالم دمشق خلف الجبل العظيم، فيما نزلنا نحن السفح المقابل فتبدّت لنا، بين الفجاج الرمادية، منطقة وادي دامر الصغيرة الخضراء. بلغنا مدخل الوادي فتوقفنا لندخن الشيشة في مقهى يمر من وسطها جسر، وسط الماء والخضرة. الأشجار تظلل الطريق من كل جانب، وعيون الماء تنبع هنا وهناك بين الأحراش. عبرنا جسرًا آخر له الشكل نفسه، شكل بيكار منفرج. إلى اليسار امتد الجبل رماديًّا جافًّا أجرد، وإلى اليمين سار مجرى الماء وسط خط الوادي الأخضر الضيق، وكثير من أشجار الحور، بأوراقها المرتعشة التي يتقاطع بياضها الناصع مع زرقة السماء الصافية. سرنا بعد ذلك صعودا وسط طريق بريّة جرداء لكن ليس كحال مثيلتها في فلسطين، إذ كانت بعض الشجيرات منتشرة هنا وهناك، يضفي لونها على المكان ظلالا بنفسجية يتخلّلها لون الرماد. بلغنا حيمر مع نزول الظلام، وهي قرية تقع في منتصف منحدر الجبل في ما يشبه تقاطع طرق. نزلنا في محل به غرفتان، وقد فضلت في ما يخصني قضاء الليلة في العراء.

انطلقنا يوم الجمعة عند الرابعة فجرًا، فسلكنا طريقًا وعرة تخترقها مجاري ماء خاضت

فيها حوافر الخيل في الظلام. بعد حوالي ساعة من السير دخلنا فجًا يشبه كثيرًا فجاج سلسلة البرانس في فرنسا. خليط من الصخور والخضرة، وفي وسط الطريق جيفة ضبع ميت أكلت الوحوش معظمها.

مررنا بقافلة يسوق أصحابها حميرهم التي زاحمت حميرنا وبغالنا في الطريق. بعض قمم الجبال ترتسم أشباحا في الظلام، وأُخَرُ قد أصابتها أشعة الشمس فبدت زرقاء، وبرد شديد تستشعره السيقان تحت سراويلنا الصينية. ينقطع الفج لفترة ثم يعود، ومجموعة من الجنود غير النظاميين تمر بنا. أما المنظر من حولنا فلست أجد للأسف ما يسعفني من الألفاظ في وصفه، وبخاصة تلك الألوان التي تتشابه لكن كلا منها يختلف عن صاحبه، كأن ترى جبلا أزرق وإلى جانبه آخر يميل إلى السواد، لكن لا الزرقة زرقة ولا السواد سواد!

عند العاشرة توقفنا للقيلولة في كوخ يقع قبالة قرية المجدل الرابضة عند سفح جبل لبنان الذي بدا لي رماديًا تعلوه زرقة وتكلل قممه ظلال بنفسجية، وإلى اليمين سهل فسيح تكاد تخفيه عنا سفوح سلسلة جبال لبنان الشرقية التي خلفناها وراءنا. أكلنا عنبًا شهيًا في العريش المسقف بأغصان نباتات شائكة. جندي بجوارب طويلة مخططة ملونة، عنَّفه جوزيف لكونه لمس بندقيتي. وصل المكريون الذين كنا قد جاوزناهم في الطريق، فتوقفوا ليشتروا عنبًا. لحِظتُ من بينهم رجلًا شاحب الوجه عريض المؤخرة يرتدي سراويل خضراء. أمّا سراويل صاحب الكوخ فمطرزة من مستوى الجيوب وحتى الركبة، من الأمام ومن الخلف معا.

سهل فسيح منبسط غارق شمسا، وطريق طيبة، وأمامنا إلى الشمال، عند سفح جبل لبنان، امتد شريط وادي زحلة الأخضر الطويل.

بعد ساعتين ونصف الساعة من المسير قطعنا جسرا أفضى بنا إلى طريق تمضي تحت الأشجار ويجري فوقها الماء بين الحين والحين.

بلغنا مدخل زحلة فأقمنا في بيت كبير جرى انتزاعه من أصحابه. جاءتنا امرأة بباقة من الزهور، وبقي الحاضرون ينظرون إليّ مذهولين فيما أنا أغتسل. قمنا بعد ذلك بجولة، حيث كانت بعض المنازل تقوم على سفح الرابية عن يميننا، وإلى اليسار السهل المكسو أشجارًا،

وخصوصًا منها أشجار الحور، وعلى السفح المقابل فيما وراءه بدت مدينة زحلة. الطريق تنحدر نحو قاع الوادي، وسط شجيرات الخزامى ونبتة أخرى لها أزهار تشبه البنفسج غير أن لونها أزرق شاحب. طاحونةٌ هي ذاتها التي مررت من أمامها في طريق العودة. بلغنا قرية أولى اتسع عندها مجرى الماء، ونزلنا فقطعنا جسرا قديما، وأمامنا تبدت زحلة على المنحدر فدخلناها مما يشبه سوقا على شكل ممر طويل مسقوف ذي أعمدة. لمسنا سريعا دماثة أخلاق أهل المدينة وطيب معشرهم، والتقى بي أبو عيسى وسط الأزقة، فعدنا أدراجنا من حيث جئنا. عند زاوية البيت التي تنعطف عندها الطريق المفضية إلى الجسر رأيت امرأة شابة بعينين فاحمتي السواد، وأنف مستقيم وجسم قصير ممتلئ، تمسك طفلا صغيرا بين يديها، وهي مكسوّة بياضًا. اتبعت الضفة الأخرى من النهر الصغير، فمررت بمجموعة من الأطفال يسحبون واحدا منهم على مؤخرته، وبعض الرجال الذين ألقوا علي التحية وهم يمرون. بلغت الطاحونة حيث الإبل والشجيرات المزهرة والروائح وصوت خرير الماء ومنظر السهل والأفق من جديد، وتحت إحدى الشرفات وقفت امرأة لاحت لي عن بعد وقد أخفى الخمار النصف الأسفل من وجهها، على أن العينين بدتا لي جافّتين قاسيتين.

تناولنا عشاء فاخرا على الشرفة، فيما الشمس تغيب مودعة بأشعتها قمم الجبال التي اكتست لونًا أزرق في الطرف الآخر من الأفق. بقيت بعد العشاء مضطجعا هناك أدخن غليون الليل وأنا أتأمل النجوم وثلاث نيران للرعاة في البرية، وأرتعد من البرد الشديد.

يوم السبت 14 سبتمبر / أيلول. انطلقنا عند السادسة صباحًا والنهار قد بدا يغمر الكون بنوره، وسرنا لمدة ست ساعات في سهل البقاع بين جبل لبنان الغربي إلى الشِّمال وجبل لبنان الشرقي إلى اليمين. اللونان الأبيض والأشقر يطغيان على ما عداهما من ألوان، وجبل لبنان الغربي يغلب عليه لون من الزرقة الرمادية رائع، أمّا نظيره الشرقي فداكن اللون حتى يكاد يكون أسود، يغمر الظل سفحه الغربي المقابل لنا. كان السهل حين استيقظنا يختفي تحت غطاء من الضباب جعله يبدو كبحر عظيم من اللبن محصور بين السلسلتين الجبليتين. ثم راح الضبابَ ينقشع رويدًا فيعري الجبال شيئًا فشيئًا لتبدو قممها أكبر فأكبر، حتى انتهى به الأمر غلالة رقيقة في قاع الوادي ما لبثت أن نثرت الريح مُزَقها شتاتًا. وإلى

يسارنا امتدت فجاج جبل لبنان، وبدت لنا بينها بعض القرى الصغيرة.

الأرض الموات من حولنا مكسوة بالنباتات الشائكة، ومجرى ماء يمضي متلوّيًا وسط الطريق. بلغنا رابيةً صعدناها بخيلنا فيما اضطرت البغال بأحمالها إلى الالتفاف من حولها، وإلى اليسار أبصرنا مضارب للبدو سوداء اللون مربعة الشكل منبعجة في وسطها من أثر ثقل القماش الذي تحمله أعمدة من الأطراف. وفي البرية انتشر قطيع من الجمال التي راحت تقضم الأعشاب الجافة، يرعاها رجل واقف وبجواره حصان أبيض مسرّج.

بعلبك: عند الحادية عشرة والنصف انطلقنا ثلاثتنا فسرنا أمام الركب لنختار مكانًا ننصب فيه مخيمنا. على بعد نحو خمسمائة خطوة من بعلبك، رأينا معبدًا صغيرًا يقوم على أعمدة تبدو من خلالها زرقة السماء وقمم جبل لبنان. تجولنا في المنطقة طويلا قبل أن يقع اختيارنا على مكان تحت شجرة جوز قرب طاحونة إلى الجنوب من المعبد.

لأطلال بعلبك ألوان رائعة، وبعض الأعمدة اكتسبت لونًا يميل إلى الحمرة، وحين بلغنا المكان حوالي منتصف النهار بدا لي جزء من التاج الذي يعتلي الأعمدة الستة الكبرى وكأنه من الذهب المنقوش من توهُّجه. كانت أمامنا لوحة تاريخية لم يسبق لرسام أن أبدع مثلها، تشتمل على كل المقوِّمات، من الأطلال إلى الجبال فالمراعي فالماء الجاري الذي أسمع الآن خريره. أمّا القمر فلم يطلع بعد، فمنيت نفسي أن أراه في الغد فوق تاج الأعمدة.

خرجنا حوالي الثالثة عصرًا لزيارة المعبد حيث بقينا لساعتين. وفيما نحن جلوس في باحته على صخرة في الظل مع دليلنا الشاب الذي كان أنفه محترقًا من ضربة شمس، فكّرنا جميعًا بصوت مرتفع في «الإمبراطورية الرومانية» العتيدة.

يوم السبت 14 سبتمبر / أيلول، في بعلبك، الساعة السابعة والنصف مساءً.

قرص القمر اللامع يتوسَّط كبد السماء العارية الباردة، ويغمر بنوره غابة الحور الصغيرة خلفنا، التي اسودَّ لونها مع حلول الظلام، على ضفة الجدول الذي غسل فيه ساسيتي ملابسه قبل قليل.

المعبد (أو لعلها معابد شتى، فالدرجة المتقدمة من التهدم لا تسمح بالحسم في ذلك) محاط، أو قل إنه مختنق من أثر أسوار الحصن الذي أقيم عليه ومن حوله خلال القرون الوسطى. جزء من السور القديم لا يزال قائما من جهة الغرب. وهناك، كما في الجهة الجنوبية، يرى الزائر أحجارا عظيمة تقوم فوق بعضها مكونة حائطا، هي التي ينسبها السيد ميشو[1] إلى عصر سابق على العصر الروماني. وقلب المعبد هو الذي لا يزال في أفضل حال قياسًا مع باقي أجزائه، وهو موجّه شطر الشمال، وجانبه الخلفي يطل على السهل الممتد إلى الجنوب. من جهة الشرق هناك عمود متكئ إلى السور، وغير بعيد من مدخله يقع البرج الذي أخذ له ماكس صورة فوتوغرافية، وهو على شكل صليب من الداخل، بنوافذ مزدوجة، وفتحات جعلت بعرض يتيح للرامي أن يمد منها قوسه. هناك حفرة في الوسط وبقايا عمود ضخم، وستة أعمدة جميلة لا تزال قائمة في وسط الباحة، وبنايات رومانية متناثرة. هناك مُصَليات صغيرة تقوم لصق السور تعلوها أفاريزُ بطنها على شكل جوف محارة. الحصن محاط بالمياه من الشمال والشرق. وإلى ناحية الزاوية الشمالية الشرقية، بين أشجار الحور والصفصاف، يقع معبد صغير للإلهة فينوس، لا تزال تظهر على بقايا أحجاره المتهدمة بعض الكتابات المسيحية. الماء يجري عبر باب بيت عربي قديم مندثر لم يبق منه شيء، وأمام ذلك المكان، تحت أشجار الجوز، كان بعض الغجر ناصبين مخيمهم أمس. كانت بينهم امرأة تقارب الثلاثين من العمر، بعينين سوداوين وأسنان ناصعة البياض وأقدام وسراويل رمادية من أثر الغبار، تهدهد طفلا في فراش من تلك الفرش التي تصنع من طرف من القماش معلّق بين غصني شجرة أو جدارين أو بين عارضتين على متن سفينة.

ينفتح تحت الحصن سردابان اثنان عريضان طويلان، أحدهما من جهة الشمال الشرقي والآخر من جهة الجنوب الغربي، وتزيّن قبة مدخل أولهما تماثيل نصفية مثل تلك التي تزيّن قبة الرواق الخارجي من قلب المعبد، ينير ضوء الصباح جباهها وهي مضطجعة وتلعب الظلال فوقها فتبعث الحياة في أجسادها المتهالكة التي لم يعد يكاد يَبين منها شيء.

---

(1) هو جان فرنسوا ميشو، مؤلف كتاب شهير عنوانه «تاريخ الحروب الصليبية»، وكان فلوبير على معرفة به.

دخلنا السرداب الأول فانتهينا إلى قاعتين مظلمتين لا يرى فيهما الناظر شيئا. لا شك أنهم كانوا يستعملون الدهليزين إسطبلا للخيول والبهائم، أمّا سقف الرواق الخارجي من قلب المعبد فمزيَّن بخطوط منحرفة متقاطعة على شكل معينات أو مربعات مائلة، تحيط بتماثيل نصفيّة لأباطرة ذكور وإناث لم يكد يبقى من ملامحها شيء. لم أر في أي مكان صورتي الإلهين جوبتير وليدا اللتين يتحدث عنهما كتاب المسافرين. وقد ألهيت النفس لبعض الوقت بتقليب قطعة كبيرة منحوتة ساقطة أرضًا برأس عصاي.

تبدو أحجار بعلبك وكأنها غارقة في تفكير عميق، ولعل ذلك من تشابهها مع هضبة أولمب في أثينا. بقيت ليومين أتجول في المكان، فيما الريح تعبث بندف بيضاء تقتلعها من النباتات الشائكة ثم تحملها إلى الأعالي كأنما تزين بها وجه السماء، وفي بعض الأحيان يرف جناحان فجأة في مكان يعلو عن رأسي بسبعين قدمًا، لطائر كان مستقرًّا فوق تاج عمود فأفزعه مقدمي. وذات مرة وأنا في قلب المعبد الذي تسد مدخله قطعة من السور، أتأمل لون الحجارة الأحمر الجميل، جاء طائر كبير ذو ريش ملون، لعله صقر، فحط إلى شمالي على تاج العمود الثاني. كان لون ريشه أرجوانيا فيما أطراف الجناحين مائلة إلى السواد، وقد بقي هناك يسرح ريشَ عنقه في هدوء متعالٍ ذكرني بنسر جوبيتر، والحق أنه كان يبدو في أسعد حال وهو فوق تاجه الكورنثي! بعد ذلك بقليل سمعت صرخات خافتة يطلقها عصفور، كأنّها صوت استغاثة.

في هذا المكان من المدخل توجد أكبر أعداد من أسماء المسافرين الذين مروا بهذا المكان فكتبوا أسماءهم على جدرانه. كانت الأسماء كثيرة يختفي بعضها تحت بعض ويلتبس بعضها ببعض، مكتوبة بلغات مختلفة، من إنجليزية وعربية وتركية وفرنسية وغيرها من كتابات الأفراد الذين جاؤوا من أرجاء الأرض ليمرّوا من هناك، والذي لست أشعر أنهم أقرب إلي من هذه الأحجار التي أمشي فوقها. شعرت أن تلك الشهادات التي تركها هؤلاء الناس هناك، والتي يقرأها المرء في صمت فيما الريح تهب والسكون يعم، تترك في النفس أثرًا أشد برودة من ذاك الذي يجده من يقرأ أسماء الموتى على شواهد مقبرة.

كان الجو اليوم باردا، ولا عجب، فقد اجتمعت هبات الريح التي تمرق بين الأعمدة كما تفعل بين جذوع الأشجار، والسحاب العابر السريع الذي ما أن تظهر عين الشمس حتى يخفيها. كانت أشعة الشمس حين تفلح في بلوغ المكان تضيء الأطلال المنحوتة فتكاد تبعث فيها الحياة، كأنّها ابتسامة إله غافٍ يفتح عينيه ثم يعود فيغلقهما. جميل منظر الأعمدة الداخلية وخلفها أختها الستة الكبرى المرتسمة فوق صفحة من السحاب الأبيض، غير أنها تكون أجمل حين يغمرها الضوء.

في قلب المعبد تسعة مصلّيات تتوّجها أفاريز.

إلى الغرب الثكنة التي بدأ إبراهيم باشا ببنائها.

منظر جبل لبنان من أعلى البرج حيث كان مكسيم يشتغل. تراءى لي من هناك الثلج بين قمم الجبال.

خرجنا اليوم عند منتصف النهار فيما الريح تهب بقوة. رأينا نساء زنجيات مرتديات ثيابًا بيضاء جهة السرداب الأول، وحسبنا أنهن يناديننا فتبعناهن حتى مدخل السرداب الثاني، حيث اتضح لنا أننا كنا مخطئين، ولمحنا طفلا ورجلا زنجيًّا يتبعانهن وهما يراقباننا عن بعد.

في المساء أصيب جوزيف بالحمى فبقي يرتعش وهو مضطجع أرضًا وقد وضعنا عليه كل ما نملك من أغطية.

الحصن مبني بحجارة المعبد، ومازال الزائر يقع على طرف من عمودٍ هنا وتاجٍ مقلوب هناك وغيرها من أنقاض المعبد قد أصبحت جزءا من جسم السور السميك المتين. على رأس إفريز قلب المعبد طرفٌ من السور العربي لا يزال قائمًا، وفي الساحة أقواس في داخل الجدران كالتي رأيناها في عكا.

كان ذلك مساء يوم الاثنين 16 سبتمبر / أيلول.

يوم الثلاثاء، حوالي العاشرة، انطلقنا من بعلبك، مفارقين مضيفنا ذا اللحية البيضاء الذي أعطيناه عشرين قرشًا فانهال علينا بالدعاء. خرجنا قاصدين دير الأحمر، فسرنا لثلاث

ساعات وسط طريق برية ليس فيها ما يذكر، اللهم إلا جبل لبنان الذي امتد أمامنا قسمين، أولهما أخضر خضرة يانعة يمضي محدودبا حتى منتصف الجبل، والثاني رمادي. مررنا بنساء سمراوات البشرة يغطين رؤوسهن بمناديل بيضاء، وهن يحصدن بعض سنابل القمح وسط الأعشاب اليابسة التي تكسو الأرض. حين مررنا بهن توقفن عن العمل ورفعن رؤوسهن ينظرن إلينا بفضول شديد وهن ممسكات مناجلهن بأيديهن.

حوالي الواحدة والنصف ظهرًا وصلنا بلدة دير الأحمر، وقبل ذلك بقليل انطلق مكسيم يركض بحصانه فأسقط حمولة بغلين ونصف حمولة بغل ثالث. نصبنا مخيمنا وسط ما يشبه مخزنًا كبيرًا يقوم سقفه على أعمدة، وسط الدجاج والكلاب والحمير والنساء. هؤلاء الأواخر أغلبهن دميمات تبدو القذارة والإهمال على مظهرهن، يرحن ويجئن وأثداؤهن تتدلى متأرجحة مرة إلى الخارج ومرة في داخل جيوب فساتينهن المتسخة. وبين هؤلاء سار رجل شيخ بخطوات بطيئة، متكئا على عكازه. كان شيخًا فانيًا يلبس أسمالا ويعتمر قبعة زرقاء ذكّرتني بقبعة كبير الكهنة في أوبرا «لا نورما»[1]. وشيخنا هنا هو كاهن القرية، مثل قولك خوري البلدة عندنا.

في مخزن يشبه الذي نزلنا فيه رأيت مجموعة من الرجال منهمكين في حشو القشّ في سروج حمير. بدوا لي أقوياء نشطين، يتحدثون بأصوات عالية ويتناوبون على اجتذاب أنفاس من الغليون نفسه.

جاء أحد سكان البيت فانقض كالوحش المفترس على قطعة سكر كان ساسيتي يحاول تكسيرها ليعطي منها لجوزيف الذي كان مضطجعا في وسط الباحة يرتعد من الحمى ويهذي بالعربية والإيطالية والفرنسية.

للنساء هنا، مثل يهوديات فلسطين، شعر مستعار يرسلنه خلف ظهورهن حتى يبلغ الأرداف، غير أنه هاهنا ليس من حرير مجدول، بل هي ثلاثة أذيال سميكة من خيوط الحرير المرسلة، تشدها إلى بعضها مسابك من الفضة على شكل تيجان، ولا شك أن ذلك كله يمثّل

(1) أوبرا من فصلين للموسيقي الإيطالي فنتشنزو بلليني، وهي إحدى الأوبرات المشهورة في القرن 19.

حملا ثقيلا.

بقيت طويلا أتأمل طفلا صغيرًا ذا سنتين أو ثلاث كان يلعب هناك. كان على درجة من القذارة جعلت العين تكاد لا تميزه عن الأسمال التي يرتديها، والتي كشفت ثقوبها رغم ذلك عن أعضاء من جسمه الطفولي يثير مرآها في النفس دواعي الحنان. كان يلعب وحيدا لا ينتبه إليه أحد، ويحدث نفسه بكلمات مبهمة من عربيته الجنينية. شرع يحاول أن يجمع ثلاثة أعواد من التبغ مع بعضها وأن يحملها فوق ظهره، لكن الأعواد التي لا شك أنها كانت بمنزلة أعمدة بالنسبة إلى جسمه الصغير لم تكن تلبث إلا قليلا ثم تسقط، فيعاود الطفل الكرة في صبر وأناة. جعلت أنظر إليه وأنا أفكر في أطفال حديقة التويلري بباريس بأجسامهم النظيفة وملابسهم الأنيقة، يلعبون بالرمل تحت أنظار سيدة أو خادمة، وقد جلبوا لهم رفشًا وعربة يدوية صغيرة وغيرها من الألعاب ليستمتعوا بها، أمّا هذا فيلعب وحده، على أنني لا أحسبه إلا مستمتعًا بوقته كل الاستمتاع، غير دارٍ شيئا عن أعياد الميلاد في أوربا ولا عن موسم القديس رومان في مدينة روان الفرنسية.

خلال الليل، جحافل لا بأس بها من البراغيث، ونقيق الدجاج وصراخ الأطفال وأصوات نسوة يتخاصمن ورجال يتحاسبون. وحين بدا أن الصمت عم المكان، قامت ربة البيت فذهبت إلى حيث كانت كلبة ترضع جراءها قرب النار، فأخذت الجراء ورمت بها واحدًا بعد واحد إلى ما وراء السور وكأنها ترمي كرة تلو أخرى. أما أشد تلك الكائنات جميعها ركونا إلى الهدوء فبعيرٌ كان في الباحة، فيما اضطجع على أرض الزريبة حمار يحتضر لم يعد لضعفه يستطيع حراكًا، اللهم إلا قائمة واحدة شرع يحركها جيئة وذهابًا.

افترقنا قرب جبل لبنان. يوم الأربعاء عند الخامسة والنصف صباحًا، حيث سار مكسيم عائدا إلى بيروت بجوزيف الذي لم يعد لاشتداد مرضه يستطيع مواصلة السفر، في حين واصلت أنا وساسيتي الطريق مع متاعنا متجهين نحو الجبل.

سرنا في ذلك الصباح البارد وأمامنا جبل لبنان الذي ينقسم الجزء المنحدر منه من بعلبك إلى قسمين يريد كل منهما أن يطغى على الآخر كأنهما بحران متلاطمان، أحدهما مكسو

بالأشجار حتى ليبدو كأنّه غابة، وكل أشجاره من الخروب.

كلما ازددتَ صعودا زادت جبال لبنان الغربية أمامك ارتفاعا في عنان السماء، وكذلك جبال لبنان الشرقية متى نظرت إلى خلفك، والسهلُ متى نظرت يمينًا أو يسارًا. يلي ذلك نجدٌ منحنٍ مزروع سرنا فيه نزولا حتى أفضينا إلى القاع حيث يجري جدول من الماء المثلج المنحدر من الجبال، فيمضي تارة منحدرا وتارة قافزا بين الصخور في شلالات طبيعية. في مكان ما في الأعالي يلتقي بجدول آخر أكبر منه ثم يتفرق هذا هنا وهناك إلى جداول عديدة، يحدث الماء الجاري فيها مجتمعة خريرًا صافيا كصفاء الماء نفسه. أراد حصاني أن يمد عنقه ليشرب لكن طول اللجام لم يسعفه لأن المجرى كان قريب الغور غير عميق. أما الرجال فانبطحوا على بطونهم وشرعوا يعبّون الماء عبا.

عدنا نسير من جديد صاعدين، في أرض أصبحت أقل لينا، وبين أشجار أكثر تباعدا وأقصر قامة، بينها عدد لا يصدَّق من الشجر الميت. وكلما ازددنا صعودًا زادت الطريق المليئة بالمسافرين وعورة، حتى اضطررنا إلى أن ندفع بأيدينا حصان أبي علي الذي كاد يموت من الإجهاد، دعك من البغال التي بدأت رغم كل ما بذلتُه في تجميعها من جهد تتفرق وتمشي متعثرة. الطريق البرية التي نسير فيها الآن تبدو من بعيد جرداء مقفرة، غير أن فيها بعض النباتات التي تنبت هنا وهناك بين الحجارة البيضاء والأرض الرمادية. السماء تزيد زرقةً والسهل يرتفع رويدًا صوب بعلبك، كرجع الصدى من أواخر سلسلة جبل لبنان الشرقي. بحثت بناظري عن الثلج الذي كنت قد أبصرته في الأيام الأخيرة فوجدت بعضا منه على نحو ثلاث رميات بندقية من هناك.

نال البرد والتعب من ساسيتي، أما البغال فأصبحت تزحف أو قل إنها توقفت تماما عن السير أو كادت.

الأفق أمامنا يتسع، وبعد قليل سنكون قد بلغنا أعلى الجبل، فهل يا ترى سيتأتى لي أن أبصر البحر من هناك؟ التفَّت بي الطريق حول رابية عبر ممرٍّ ضيق المدخل يراه المسافر تحته حين يكون في الأعلى، أفضيت منه إلى وادٍ ضيق مقعَّر الوسط مرتفع الجوانب فيه مساحة

خضراء يانعة الخضرة. مضينا بعد ذلك صعودا لحوالي خمس دقائق، وقد غطى الثلج الأرض إلى يميننا، ثلجٌ لا بد أن عشبا كثيرًا سينمو مكانه بعد أن يذوب.

من أعلى جبل لبنان يشرف المرء في آن واحد على مناظر يكفيه أن يلتفت لينتقل من واحدها إلى الآخر. فهو يرى جبل لبنان الشرقي وسهل البقاع والسفوح الشرقية لجبل لبنان الغربي من جهة، ومن الجهة الأخرى وادي الأرز ثم البحر بزرقته التي يعوم فوقها الضباب، في منتهى هذا الفج الرمادي المشوب لونه بحمرة يتخلَّلها سواد. أمّا الوادي الممتد أمامًا فينحرف قليلًا نحو اليمين ثم يعود ليستوي ويمضي منحدرًا صوب البحر، كأنّه خندق ضخم حفرته يد الطبيعة بين جدارين عملاقين. وعلى صفحته المائلة إلى الزرقة الداكنة ترتسم بقع سوداء هي الأشجار، وبينها مكعبات صغيرة رمادية هي البيوت. وفي صدر المشهد إلى اليمين روابٍ تتوالى في انتظام كفقرات ظهر، بلون وردي باهت يمضي في شحوب منحدرا حتى يمتزج ببياض الأراضي في أسفل الوادي. وبين الروابي خطوط بيضاء متعرجة تفصل بين كل رابيتين، هي مجاري الجداول الجافة في هذا الفصل من السنة، وعلى ضفافها ينبت شجر الأرز بخضرته التي تتقاطع مع محيطها الرمادي. وقد بدت لي تلك الأشجار أقل مما كنت أتوقع قياسًا إلى شساعة البرية من حولي، غير أنها كانت بلا مراء تضفي على المشهد جمالا أخاذا.

إلى اليسار انبعاج في الأرض كأنّه موجة ضخمة، أملس المنظرِ رمادي اللون أجرد. أما الخضرة اليانعة فلا تبدأ إلا في أسفل الوادي. وإلى اليمين، من جهة طرابلس، أصل جبل أبيض هو الذي تنعطف عنده الطريق إلى بلدة إهدن. هناك في منتصف المنحدر مساحة كبيرة خضراء قبل بلوغ السهول التي تمتد من هذه الجهة حتى البحر، أمّا قرية بشري، بأشجارها الباسقة كالأرز وهي في الواقع أشجار حور، فبدت كأنّها معلقة على حافة الجرف، بينما الوادي، الذي كان موقعنا المرتفع يمنعنا من رؤية المسالك التي تؤدي إليه، فكان يبدو كأنّه قُدَّ من الجبل قَدًّا.

إذا استدرت لتنظر إلى جبل لبنان الغربي ستجد أمامك نظيره الشرقي، وفي مقدمة المشهد

الجزء الأجرد من الجبل، ثم المرتفع الرمادي الذي تنتشر فوقه بعض الخضرة، والذي يمضي مصعِّدا نحو الجزء المكسوّ أشجارًا. من ثم تمضي الأرض في ارتفاع لتلتقي بغابة الخروب التي لا يظهر الجانب الشرقي منها. بعد ذلك يأتي سهل البقاع الذي يبدو كأنّه يصعد للانبطاح عند أقدام جبل لبنان الشرقي بسلاسله المتتالية، الذي يبدو أضخم وأقل ارتفاعًا من نظيره الغربي. في وسط السهل ينتصب الجبل الذي مررنا به قبل أيام في طريقنا إلى البقاع. وإلى اليسار، بدا لي جبلا لبنان الشرقي والغربي وكأنهما يلتقيان في الأفق البعيد ليحتضنا سهل البقاع، أو على الأقل يتقاربان حتى لا يكاد أحدهما يتميز عن صاحبه، وإلى اليمين الجبال التي تختفي وراءها زحلة. كان مكسيم قد اتبع تلك الطريق، ولما كنت تقريبًا في منتصف طريقي إلى الجبل، فقد دققت النظر عساي أراه. لا طائر ولا صوت ولا شيء، عدا ريح ثلجية ودوار من أثر الارتفاع.

لحق بي الرجال والبهائم وهم جميعًا في أسوء حال. وكنت قد رأيت قبلها البغل الذي يحمل أواني المطبخ وقد سقط متلويا في المساحة الخضراء التي مررت بها للتّوّ. بقي أبو علي وحصانه في الطريق، أما ساسيتي فكان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، مما جعلني ألقي عليه بمعطفي لأدفئه، فصار يبدو كرجل بدين بشع. كان المسكين يرتعد من البرد ومن الحزن ومن الإحباط معا. ترجّل من على حصانه فلم يقو على المشي، وسار خطوتين أو ثلاثًا متعثّرًا، فسقط أرضًا مرتين أو ثلاثًا ثم عاد يمتطي الحصان بمشقة بالغة. وقد كان من لطف الأقدار أنه لم يقتل نفسه، لأنه لم يكن أكثر استواء على سرجه وثباتا عليه من كيس من الملابس. طفق يسألني على رأس كل دقيقة كم تبقى لنا من الطريق، فاجتهدت في أن أسرّي عنه ما استطعت.

بدأت الطريق في النزول مجدّدًا، طريق ترابية ليس فيها حجارة، شديدة الانحدار إلى درجة أرغمتني على الترجل عن حصاني. مضى الوادي في اتساع كلما ازددنا نزولًا، فلم يعد يشبه خندقا محفورا بين حائطين، بل صار أقرب إلى فج محصور بين سفحين شديدَي الانحدار. تركنا غابة الأرز عن يميننا وأوغلنا في الوادي، فيما أبو عيسى يصرخ مستنكرًا كلما نطق أحدنا اسم الله. وفيما نحن كذلك إذ بصاحبيَّ الغبيين يرفعان عقيرتهما بالنداء ليسألا

عن الطريق رجالًا كانوا يعملون في حقل بعيدا عن مكاننا. توقفنا لنصف ساعة نسترجع أنفاسنا المتقطعة، وسرحت البغال بأحمالها ترعى وترتع، أما الحمار فضاع منا فانطلقنا نبحث عنه. وجدنا أنفسنا في مدخل قرية بشري، وجاء رجلان يتحدثان إلى صاحبي البغال فقالا لهم إننا أخطانا الطريق إذ كان علينا أن نسير قُدُمًا إلى اليمين عند الأرز عوض الانحدار إلى أسفل الوادي. كان ذلك يعني أن علينا الآن تسلُّقُ رابية منتصبة كقالب السكر، صعدتها الخيول بجهد جهيد وتشجيع من المهاميز، أما المتاع الذي انتظرته في الأعلى لما يزيد عن ثلاثة أرباع الساعة فوصل بعد أن تدحرجت الكثير من البغال أرضا، وبعد أن اضطر ساستها إلى إرجاع حملين أو ثلاثة أحمال إلى ظهر البغل الذي سقطت عنه.

فيما أنا هناك خلف بشري، أنظر إلى الجبل الذي يواجهني من جهة الوادي، بألوانه القرمزية ومساحاته المزروعة وقممه الرمادية التي يغمرها الضوء، وفجاجه التي اكتنفها الظل، وامتداداته التي تمضي إلى ما وراء ذلك حتى تختفي وسط ضباب أزرق مائل إلى السواد، جاءت امرأة عجوز ذات وجه ينضح طيبة وشعر رمادي أشعث، فأعطتني كوبا من الفخار فيه أَرزٌ مسلوق. كانت تضع على قمة رأسها حلية من الفضة على شكل قُمع من نحو ثلاث بوصات، أعلاه منفرج مقبب وفوقه منديل. جاءت بعد ذلك فتاة طويلة القامة نحيفة الجسد بيضاء البشرة، بعينين زرقاوين وأسنان شديدة البياض، فوقفت بجوار العجوز عند لجام فرسي. شرعت المرأتان تتحدثان إلي بحديث لم أفهم منه سوى أنهما يعرضن علي البقاء وقضاء الليل عندهما، لأني حسب زعمهما لن أعدم أن أضل الطريق فلا أبلغ إهدن إلا بعد غروب الشمس. كانت الفتاة ترسل إلي نظرات كلها إغراء، وتطلق ضحكات بهيجة كالربيع، فيما كانت العجوز واقفة خلفها تشير إليها وتغريني بها بكلمات عربية، فبقيت مكاني متردّدًا. كان ساسيتي نائمًا فوق حصانه بعد أن تعب من كيل السباب للناس الذين أعانونا على الصعود بالأحمال، والذين كانوا يحدثوننا جميعًا في آن. وقد انتهى به الأمر، حين يئس من إفهامهم مراده، إلى أن صار يتحدث عن ضربهم بالسيف. بعد ذلك نال منه التعب فساد الصمت.

انطلقنا من جديد، فلم يمض وقت طويل حتى سقط اثنان من البغال في حفرة، ولما كان

المكريون بطبيعة الحال على بعد ربع فرسخ عن بغالهم كما هي العادة، فقد انتظرنا أن يلحق بنا أبو عيسى كي نشرع في عملية إنقاذ البغلين وأحمالهما. أثناء ذلك ضل البغلان الآخران عنا، أما الحمار فكان لا يزال في الخلف مع حسين.

من أجل إخراج البغلين من الحفرة التي ترديا فيها كان لا بد من حفر التراب بأيدينا لنجعل جوانبها أقل انحدارًا، ورغم ذلك انزلقت قوائم البغل الذي كان يحمل الطعام، فصرخت منبها أبا عيسى، الذي سارع يحمل حجرين في يده، فلما واصل البغل انزلاقه عدت أصرخ بالرجل الذي ضرب رأسه من الجانبين بالحجرين حتى انحلت لذلك عمامته وهو يطلق وابلا من السباب في كلمات غلب عليها حرفا الألف والهاء. واستطعنا في آخر المطاف أن نعيد البغلين إلى الطريق فعدنا نواصل المسير. كان الليل يقترب سريعًا، مما استدعى أن نجد في السير لأن إهدن مازالت على أكثر من ساعة منا. انطلقت أخب بالجواد في طريق بدا لي أنه يؤدي إلى القرية، لكني اكتشفت أنه يقودني إلى الجبل، فعدت أدراجي عبر الحقول متجها إليها. كان هناك قطيع من الماعز الأسود يرعى على سفح رابية، فيما الشمس الغاربة تجنح صوب الأفق وراء البحر، وأشعتها المحتضرة تصبغ بلونها الأحمر قمم الجبال والسماء فوقها، كأنّه ذنب طائر الفينيق مفروش على هذا الجانب من القبة الصافية. كان السواد يوشح بعض الروابي والزرقة الداكنة تجلل بعضها الآخر، وفي خلفية المشهد ارتسمت خضرة المنطقة المحيطة بقرية إهدن. مضيت مخترقا الحقول وملتفا حول الصخور والبساتين المسوَّرة، فيما ساسيتي الذي كاد يتجمَّد من البرد يتبعني عن بعد كلما استطاع.

مدخل قرية إهدن جميل يروق للعين، بغابة صغيرة من أشجار الجوز النابتة وسط صخور عظيمة بيضاء. الطريق تمر تحت الأشجار على ضفة مجرى ماء، والسفح الأيمن من الجبل مزروع. لكن دماغي كانت تؤلمني كأنّها ترتطم بداخل الجمجمة عند كل حركة يأتيها الحصان. طلبت من أحد الرهبان أن يدلني على دير كهنة القديس فانسان دو بول، فأشار لي بأنه يقع في وسط البلدة، مما جعلني أتوقف في خان كبير مبني بالحجارة، كاد حصان متوقف أمامه أن يقتل حصاني ركلا. وصلت الدير أخيرا، فما استطعت إفهام من فيه حاجتي إلا بالإشارة، حيث استقبلني راهب شاب خجول لم يدر كيف يتصرف معي. وقد أيقظني بعد

حوالي الساعة لتناول طعام العشاء، لكني فضلت الاستمرار في النوم، وهو الأمر الذي لم يدم طويلا، إذ هاجمتني جحافل من البراغيث حرمتني النعاسَ الليلَ كله.

يوم الخميس صباحًا قمت بجولة بلغت بها طرف المدينة فارتقيت مرتفعا أطللت منه على طرابلس. تحدثت مع رئيس الدير عن المارونيين، لكني لاحظت أنه يتحفظ كثيرًا في الحديث. وقد علمت أن بعض المبعوثين الإنجليز في طرابلس كانوا قبل ذلك بزمن قصير قد اشتهوا أن يقضوا الصيف في إهدن، لكنهم اضطروا إلى الرجوع سريعًا من حيث أتوا، إذ هددهم شيخ المارونيين بأن يحرق عليهم منزلهم إن لم يفعلوا، وتكرر الأمر بعد ذلك فهددوا بأن تحرق خيامهم. وقد جرى رفع القضية إلى أنظار ديوان بيروت، فانتصر القضاء للمارونيين واضطر المبعوثون الإنجليز للعودة إلى طرابلس. وقد سألت الرجل عما إذا كان لهم، أعني لرهبان القديس فانسان دو بول، أي تأثير في حياة المارونيين المدنية، فأجاب بالنفي، وخمّنت أن للأمر ارتباطا بالقضية المذكورة.

غيرةٌ من المارونيين حيال رجال الدين الرومان، ورفضٌ للمتزوجين منهم وإرغامٌ لهم على العمل وامتهان المهن الوضيعة، مع ما يعنيه ذلك من انتقاص واحتقار.

حوالي العاشرة جاء رئيس الدير، وهو رجل إسباني ذو ملامح صارمة ووجه أسمر وسيم، عاد من معزله يحمل في علبة صغيرة كل لوازم القداس. تحدثنا خلال لقائنا الأول في موضوع الأديان المسيحية في المشرق، فوجدته أوسع ثقافة من كل زملائه الذين رأيتهم من ذي قبل. ثم جاء شيخ البلد، رجل قبيح الخلقة أشقر الشعر يلتف في عباءة سوداء جميلة مطرزة بخيوط الذهب، ويعتمر عمامة من الحرير الأحمر مطعمة بالفضة. تحدثنا عن الدروز ففاه الشيخ ببضع معلومات خاطئة لم يفت رئيس الدير أن يلاحظها. وقد كان الفرنسيون قد حجزوا عند دخولهم البلاد مع حملة نابليون كثيرًا من كتب أهل هذه العقيدة، وهي مكتوبة باللغة العربية القديمة، فأرسلوها إلى باريس. وقد لخص الشيخ عقيدة الدروز في ما يلي: خلق الله الكلمة، وهذه خلقت الخير والشر، وهي، أي الكلمة، تتجسد أحيانا وتغيب أحيانا أخرى، وهي الآن غائبة، ولعلها في جسد حيوان أو جسد أحد الكفار، وستظهر طال

الزمان أم قصُر، متخذة شكل رجل عظيم. ولما ظهر نابليون في أرض المشرق لم يشك الدروز في أنه هو الرجل المنتظر فسعوا إلى لقائه. ودينهم ذو نزعة حلولية يقوم على اتحاد الوجود، مع قدر غير قليل من النظريات التوراتية القديمة، وهم أقرب إلى المسيحية منهم إلى الإسلام، كما شرح لي رئيس الكهنة الذي لاحظت أنه يكنّ احترامًا كبيرًا لفكرهم الديني. وقد حدثني عما لاحظه لدى بعض العرب من تفكير ما ورائي عميق، تجلى له من الأسئلة التي كانوا يطرحونها عليه. أما طول أعمار أهل البلاد فعزاه إلى اختلاطهم بالأتراك، حيث يذهب المسيحيون للإقامة في السهل خلال الشتاء. في بعض القرى يبيع الرجل «حق استعمال» زوجته للغرباء لقاء المال. وقبل مجيئنا بأيام أعطى أحد الرهبان العرب علقة ساخنة لرجل من الأتراك ضبطه وهو يمارس «الفاحشة» مع امرأة، وكان سروال الرجل ملطّخًا بالدم حين ضُبط وهو يأتي فعلته.

قضيت فترة ما بعد الظهر في كتابة مذكراتي، محاطا بمتفرجين كُثر بلغوا من العدد أن سدّوا علي باب الخيمة التي قالوا إنهم لم يروا في حياتهم أجمل منها قط.

جاء أبو علي الذي لم يصل إلا عند منتصف الليل، لأنه اضطر إلى الاستعانة برجل ساعده، مقابل خمسة قروش، على ضرب حصانه ودفعِهِ حتى أوصله إلى هنا. وقد اشتكى من جوزيف قائلًا إنه لم ير قط ترجمانًا سيئ المعشر مثله، وكان يتولى الترجمة بيننا الراهب المكلف بالخدمة، والذي جلس معنا إلى مائدة الطعام فلم ينبس ببنت شفة بل بقي طيلة الوقت مصغياً بسمعه لما يقال.

مساءً عند غروب الشمس خرجنا في نزهة برفقة الراهب الشاب. كانت الجبال تكتسي لونًا بنفسجيًّا، أما السماء فكانت تبدو بين أغصان أشجار الجوز قرمزية بلون الدم في بعض المواضع. حين عدنا بدت لنا السماء من خلال نافذة الممر في الدير بلون البرتقال. كان مساءً جميلًا يضيئه نور البدر الساطع، وقد نمت وحدي تحت خيمتي مستمتعًا بوحدة ورفاهية لم أجدهما منذ زمن.

يوم الجمعة 20 سبتمبر / أيلول. بدا لي ساسيتي في غاية المرض. تقيأ عدة مرات، وساعدته مرة في إفراغ ما في أمعائه. رئيس الدير أنهكته عزلته التعبدية، أما أنا فجالس وحيدا تحت خيمتي وساقاي محاطتان بأربطة من قماش مبلل بالماء الأبيض، فيما الذباب يطن والشمس تغمر الكون بنورها. لكن أين مكسيم يا ترى ؟

خلال فترة ما بعد الظهر ساءت حال ساسيتي فاضطررنا إلى الذهاب به إلى الطبيب، وهو راهب كرملي إيطالي نحيف، قام بفحص صاحبنا. فلما كانت الخامسة أرسلت أبا عيسى إلى بيروت كي يستقدم منها سوكي Suquet، وأمضيت ليلة قلقة بسبب ساسيتي.

يوم السبت صباحًا تحسنت حال المريض بعض الشيء، فعدنا إلى الطبيب نزوره. وصل مكسيم بعد منتصف النهار بربع ساعة، أغبر أشعث متعبا مندهشا. وقد أتى معه من بيروت بأخبار منها وفاة الملك لويس فيليب. فلما كان المساء قمت مع رئيس الدير بزيارة الشيخ الذي سلمناه رسالة من الأب هازار hazard.

يوم الأحد. ساءت حال ساسيتي من جديد. خرجنا في الخامسة نقصد الأرز، حيث سرنا جنب سفح الجبل الذي يلي إهدن، فانتهينا إلى بغيتنا عند الثامنة والنصف. لم يبق هناك الكثير من الأشجار، وهي بارتفاع معتدل قياسًا إلى جنسها، ناهيك عن أن الجبل من خلفها يجعلها تبدو أقصر قامة. أجل هناك بعض الأشجار الضخمة، لكن أغصانها ميتة، ولا أظن أشجار الأرز إلا منقرضة من هنا في مدى سنوات. جذوع بعض الأشجار تحمل كتابات، رأيت من بينها اسم لامارتين وقد حاولت يد مجهولة محوه. رأينا خيمتين عربيتين خضراوين تحت الأشجار. كان ساكنوهما من الإنجليز، وقد رأينا سيدة إنجليزية تخرج من تحت إحداهن بقبعتها. أعطانا الكاهن الماروني بساطًا وكتاب المسافر.

المنظر من أعلى جبل لبنان أقل جمالا منه في المرة الماضية، بسبب الضباب الذي اكتنف المكان فحجب عنا سهل البقاع وجبل لبنان الشرقي. أما البحر فامتد بقعةً رمادية يغطيها الضباب، وأما وادي الأرز فبدا لي أقل حدّة في انحداره منه حين قدومي، ولعل ذلك من كون الطريق نفسها تصعد في غير ما حدة. لم أجد أثرا للثلوج، كما أن الجو كان أقل برودة

منه يوم الأربعاء، أما في ما عدا ذلك فقد كان المشهد رائع الجمال كعهدي به، فنزلت السفح منبهرًا كما صعدته أول مرة.

رجعنا عبر قرية بشري فرأيت فيها من آيات جمال الطبيعة عجبًا، من شلالات ماء طبيعية وجداول تتخلل صخورًا كأنّها خرجت من رسومات بوسان. وخلاصة القول أنها بلاد خلقت للرسم أو لعلها خلقت منه. مررنا بأشجار توت وحور، ونزلنا على مقربة من الكنيسة. أطفال يلعبون ورجل شاب يقرأ مرتلا بصوت مرتفع في كتاب غير مجلدٍ ورفيقٌ له يقرأ معه. كلمَنا فتى يافعٌ لا يعرف من الإيطالية سوى لفظة «نعم»، ورأينا عين ماء تسيل من بيت الشيخ.

عدنا إلى ظهور خيولنا وواصلنا المسير. أثناء نزولنا سفح الجبل شربنا شيئًا من لبن الماعز قدّمه لنا بعض الرعاة في كوب من الطين. كان لون القطيع أبيض مائلًا إلى الرمادي كلون البرية المحيطة، وبعض الشياه سوداء، وهي تنتشر على جانبي الطريق، التي تحدها أحجار بيضاء، وعلى الأرض من حولها.

عدنا إلى إهدن على الواحدة والنصف بعد منتصف النهار، حيث وجدنا الراهب الكرملي يفحص ساسيتي من جديد، فشرعنا في الاستعداد لنقل المريض إلى طرابلس.

كان الترجمان الذي حل محل جوزيف يحمل اسمه، وهو رجل نحيف أسود البشرة أبيض الثياب، ليس أمهر من سابقه في ركوب الخيل ولا هو أكثر منه يقظةً وحِدَّةَ ذهن.

في الكنيسة المارونية الواقعة لصق دير رهبان القديس فانسان دو بول، رأينا أكياسًا من الجوخ معلقة هناك وعليها أسماء أصحابها، قيل لنا إن فيها خوادر، أي فراشات عذراء من دود القز، يأتي بها مربو ذلك الدود إلى هناك لتحصل على بركة الكنيسة. رأينا هناك أيضا لوحة تمثل السيد المسيح طفلا يحتضنه الراهب مارون.

تناولنا طعام العشاء عند الشيخ، برفقة السيد أمايا. بيت الشيخ فسيح مبني بالحجر، كنت قد حسبته خانًا حين نزلت إلى جواره عند قدومي البلدة. كنسوا الباب إكراما لمقدمنا،

ودخلنا البيت فصعدنا سلما بلا درابزين أفضى بنا إلى غرفة فسيحة قطعناها وسط نحو ثلاثين خادما، حتى وصلنا أمام الشيخ الذي كان ينتظرنا في صدر المكان، فأنزلنا في غرفة كبيرة، وكان لا يزال يعتمر العمامة المزخرفة ذاتها التي رأيتها على رأسه يوم جاء يزور السيد أمايا. جاء رجل بمبخرة مر بها علينا، وآخر رش وجوهنا بماء الورد، يتبعه ثالث حاملا منديلا كبيرا لنمسح أيدينا.

كان عشاء على الطريقة الأوربية، إلا أنه مؤلف من أطباق محلية أورثتني في الليل وجعا في المعدة خِلته سيقتلني.

في الخامسة من فجر اليوم التالي انطلق ماكس يريد طرابلس، يصحبه دليل وفَّره له الشيخ، وبقيت وحدي أهتم بإعداد رحالنا والسهر على ساسيتي. طويت المتاع كله وربطت الأحمال على البغال، وسط جمع من الأهالي الذين وقفوا يتفرجون، والمكرين الذين ضايقوني في العمل أكثر مما ساعدوني في إنجازه. وأخيرا انتهى كل شيء. أما ساسيتي، الذي كان الراهب الكرملي يصر على أنه قد شفي تمامًا ولا يكف عن ترديد الأدعية من أجله، فقد كانت حاله تزداد مع مرور الوقت سوءا، والحمى لا تفتأ تعاوده، وقد أعطيته ثمان عشرة حبة من سلفات الكينين فلم يفده ذلك في شيء، وأما أبو عيسى فقد عاد برسالة من سوكي يقول لي فيها هذا الأخير إن بمقدورنا أن نقطع حتى عشرين فرسخا في اليوم.

عند الثالثة ساء حال المريض كثيرًا حتى لم أعد أعرف ما ينبغي لي فعله. قررت في نهاية المطاف أن أنطلق، فبدأت الاستعداد، وما أن وصلت الساعة الرابعة والنصف حتى ألقيته على ظهر الحصان. سرنا لمدة ساعتين ونصف عانينا فيها الأمرَّين قبل أن نبلغ البهايلة، وإحساس بالقلق يجثم على صدري وصدر السيد أمايا لم يفارقنا بعض الشيء حتى بلوغنا مقصدنا عند المساء. كان الشاب المريض على أسوء حال، وقد خشينا أن يسقط عن حصانه فسار إلى جانبه رجلان يمسك كل منهما به من جهة، فيما هو لا يكف عن مناداتي من خلفي سائلا: «متى سنصل؟ كم بقي من دقيقة؟» أما السيد أمايا فكان يهتف كلما اقتربت منه مرددا: «يا للشاب المسكين! يا للشاب المسكين!»

قبل الخامسة ببضع دقائق ودعت راهب القديس فانسان دو بول، والسيد بينا الذي قبلته شاكرًا، وكذا كل من في هذا المنزل الصغير الذي قضيت فيه لحظات من القلق والترقُّب لن أنساها. كانت الشمس تميل نحو الغروب، فانطلقت ركضا وسط القرية بكل متاعي لألحق ساسيتي، فيما بعض الفلاحين يلاحقونني بعبارات عابثة ذات محتوىً ماجن. كانت بغلة السيد أمايا تسير أماما وكنا نجد كل المشقة في اللحاق بها لأننا كنا مضطرين إلى التوقف من حين لآخر بسبب ساسيتي الذي كان يسير مترنحا وهو على شفا الموت، راكبا حصانه المنهك من أثر ذهابه في يومه إلى بيروت وعودته منها، إذ كان هو الذي ركبه أبو عيسى حين ذهب إلى هناك.

سرنا نازلين عبر طرق وعرةٍ صعبةِ المسالك، التقينا فيها ببعض قطعان الماعز. أما منظر الجبل إلى اليسار فكان رائعًا، مكسوا بالشجر والصخور، شامخا عتيدا تجري على صفحته أخاديد تركتها السيول، ينزلها المرء متشبثا بالصخر بيديه. صعدنا رابية ثم قطعنا نجدا مستويا أفضينا منه إلى منحدر ثان في أسفله توجد قرية البهايلة التي بلغناها في السابعة والنصف مساء، في ليل دامس يعمُرُه نباح الكلاب ولا تشق إلا بعضُ الأنوار القليلة ظُلْمَتَه. أعدوا بسرعة فراشا للمريض في بيت الخوري الماروني، في حجرة فسيحة ذات سقف مقوس. غير أن مريضنا وعوض أن يتحسن حاله بعض الشيء ازداد مرضا، حتى خشيت عليه أن يموت خلال الليل. كانت الحمى مشتدّة عليه وعيناه شاخصتان وهو غائب لا يدري أين هو.

نزلنا تحت شجرة على سقيفة أظن أنها جعلت هناك لاستقبال الضيوف والقيلولة. وقد جعلني الأب أمايا أشحن أسلحتي خوفا من بنات آوى التي زعم أنها تتجول هناك ليلا، كما نصحني بأن أشد علي لحافي لأن الأفاعي تكثر في تلك الأرض. وقد أعدّ هو أيضا بندقيته وأراني كيف أصنع لأحسن التسديد بأن أجعل للبندقية جناحين من الورق عند رأسها يحدد لي ملتقاهُما هدفي. كان القمر بديعا، يغمر الوادي بنوره، فيما غاب الجانب الآخر من السهل في جوف الظلام الصامت. تحدثنا عن الموتى، وروى لي وقائع اليوم الذي رأى فيه أمه لآخر مرة. كانت لحظات من احتدام العواطف والمتعة الشاعرية قلما استمتعت بمثيلات لها. وإن أنسَ لن أنسى منظر عباءته الكهنوتية السوداء ترتسم تحت ظل القمر فيما هو جاثٍ على

ركبتيه يصلي، ولا عنايته الأبوية بالمريض الشاب، ولا صبره على الماء يسخنه فوق أعواد التبن ليصنع له منه شرابًا ساخنًا. نمنا لحوالي الساعتين لكن في تقطُّع، إذ تحالفت البراغيث والقلق والرغبة في مواصلة المسير على طرد النعاس عن مآقينا.

عند الثانية والربع فجرًا عدنا نواصل المسير، فوصلنا بعد حوالي الساعة إلى ما يسمى هناك سهلًا وما هو إلا تتابعٌ من الصعود والنزول. مررنا بحقل زيتون فسيح، أشجاره قد أدركتها الشيخوخة فتجعدت جذوعها وامتلأت غضونا.

طفق القمر يشحب رويدًا مؤذنا بانبلاج نور الصباح. مررنا بجدول صغير عن يسارنا فترجلت عن حصاني وغسلت في مائه وجهي ويدي باستمتاع، ثم سرنا فالتقينا بقطيع من الحمير جعل الأب أمايا يهش عليها بسوطه كي تفسح لنا الطريق، وما أراه إلا فاعلا الشيء نفسه مع الناس متى ضايقوه في الطريق. مررنا بغابة صغيرة من قصب البوص سرنا إلى جانبها في طريق حفرتها أرجل السابلة على سفح رابية. وفجأة تبدَّت لنا طرابلس، مدينةً بيضاء تمتد على طول الساحل، وأمامها الميناء قد استوى على شاطئ البحر.

طرابلس: سرنا طويلًا منزلقين في أزقة المدينة. ألقى بعض الصبية التحية على الأب أمايا وسار بعضهم أمامنا، وخصوصا منهم طفل ذو عينين سوداوين أخاذتين وبشرة شاحبة وأنف منبعج الأرنبة، قد تدلت خصلة من الشعر على وجهه وغطت طاقية بسيطة رأسه. حين بلغت دير الكرمليين لم أجد مكسيم الذي كان قد خرج لملاقاتي، والتقيت حسين الذي قال لي إنه ذهب إلى الميناء. بقيت بعد ذلك لحوالي الساعة أنتظر، ثم عيَّل صبري فتحاملت على نفسي وقمت فلبست سراويلي دون الحذاء الذي لم تعد قدماي تتحملانه، ثم ركبت حصاني وجعلت لحافي على ركبتي من أجل ساسيتي وانطلقت قاصدًا الميناء يتبعني الفتى، فلما وصلنا إلى هناك لزمني الانتظار عشر دقائق كي يكتري لي حمارًا، ومثلها كي يصرف النقود.

الطريق بين طرابلس والميناء تغري بالركض بالحصان، فهي تمضي بين مناظر جميلة وبساتين مثمرة، ومن حين لحين تمر بك نسوة راكبات على الخيل بسراويل بيضاء وأحذية

صفراء. كان دليلي الشاب يتبعني عن بعد على حماره الأعرج، فأتاح لي ذلك أن أستمتع بالوحدة وأن أمضي بحصاني ركضا تحت الشمس كما أشاء، فيما ظِلّ شوشة طربوشي يتلاعب أمامي على الأعشاب الخفيفة، وأنا أشعر أنني، بلحافي المطروح على فخذي، أبدو مثل باشا جليل مهيب.

وصلت الميناء فجاء رجل بدين يدعى مصطفى غاسيس، وهو عميل فرنسي، يخبرني بأن القارب قد أُعِدَّ للإبحار. وجدت ساسيتي مضطجعا تحت بوابة الخان، بين السلع والجمال المارة، فأعددت له بعضا من عصير الليمون ثم جلست أنتظر مكسيم في مقهى على الشاطئ. هناك رأيت بعض البدو يمرون بجمالهم، وعلمت أنها قد تكون المرة الأخيرة، فنظرت إليهم مودعا الرجال والجمال معا.

عاد مكسيم أخيرا بعد أن ظل طيلة نهاره يبحث عني، فسارعنا نركب المريض على متن القارب بعد أن أعددنا له فراشا على رمل الموازنة في قاعه. التقينا بضباط السفينة لو ميركور، ثم عدنا على مهل إلى الدير في طرابلس، حيث التقينا ثانية بالضباط، الذين لما سمع رئيسهم اسمي سألني هل أنا ابن الطبيب، وقال لي إنه هو نفسه يدعى لونورمان، وإنه من أقرباء إي. شوفاليي. كانت المرة الأولى والوحيدة التي رأيته فيها في 1832، في روان، عند السيد مينيو، وكان قد جاء يومها يجري أول امتحاناته في البحرية، ولم يكن قد رأى البحر في حياته قط. لم يكن لأحدنا يومذاك أن يتصور أننا سنلتقي بعدها بسنوات طويلة على الشاطئ السوري. كان يومها بلا لحية، ووجدته اليوم قد أفقده الصلع بعض شعر رأسه.

تصنّعٌ مملٌّ من رئيس الدير لحملنا على شرب بعض المبردات. جاء الأب أمايا بعدها في زيارة طويلة، وخرج مكسيم للقاء السيد شوازي، فبقيت وحدي مع الأب نتجاذب أطراف الحديث. تكلمنا في نوازع الشهوات في النفس البشرية، وكيف أن الغرور هو في الدين المسيحي رأس الخطايا جميعًا، بما هو شعور بالذات غير سليم يجعل منها مركزَ جذبٍ لكل شيء عوض أن تكون الذات الإلهية هي ذلك المركز.

بيت مرضى الجذام. كنت قد زرته في الصباح بصحبة الأب أمايا، حيث فتحنا النوافذ

للتهوية وأعدنا ترتيب الأسرَّة. رأينا هناك امرأة النائب البدينة. يخترق الداخل إلى البيت باحة مهملة، وحديقة صغيرة بها شجرتا موز على الشمال، وسلم بلا درابزين يفضي إلى غرف نظيفة. في المصلى لوحتان لا بأس بهما، إحداهما تمثل القديس فانسان دو بول. اشتكى الأب أمايا من الديدان التي قال إنها تأكل الكتب في مكتبته. وبلغت الساعةُ السادسةَ فودعناه وذهبنا للعشاء عند السيد شوازي.

كان السيد شوازي، أو السيد غودان كما كان يدعى من قبل، مساعدا لدوق نيمور، لكن بعض المشاكل المتعلقة بديون قمار أرغمته على مغادرة البلاد واللجوء إلى طرابلس. والرجل لطيف شديد التواضع يغرقك بآيات الترحيب ومظاهر العناية والاهتمام، غير أننا لم نكن مرتاحين في مجلسنا لأن هناك كثيرًا من المواضيع التي لا يجرؤ المرء على الخوض فيها عنده. فالسيدة بيلو جارته تقوم بشؤون البيت، وهو يعاملها معاملة الغرباء، والنتيجة أن الحاضرين جميعًا كانوا يمسكون ألسنتهم في محضرها مخافة التفوه بما يعيب. لكن ما أشقها لحظات على النفس حين لا تستطيع التلفظ بما يجول بالذهن! كان هناك أيضا عبد الله، ترجمان مضيفنا. وقد جرت العادة على أن يرى المرء هكذا في بعض بيوت الغرباء حول مائدة الأكل رجلًا شابا يلبس زيّا تركيا، له وجه حليق وتصرفات غاية في اللياقة. والحق أنها وضعية تستحق الدراسة بما هي بمنزلة المنزلة بين المنزلتين الأوربية والتركية. فهو لا شك يعرف الكثير عن رب البيت وربته، ويخدمهما معا، لكنه في الآن ذاته ليس سوى واحد من خدم البيت يتلقى مائة وخمسين قرشًا في الشهر، ولا يمكنه أن يكون غير ذلك. وقد قيل لنا في بيروت إن السيد يلعب معه الورق فيغشه، إذ يبدو أن صاحبنا لا يمكن إلا أن يغش!

لم أر من جديد السيد بيريتيي، ذلك الرجل ذا الشارب الأنيق، الذي يبقي على مهمازيه مثبتين على عقبيه حتى وهو على متن السفينة. لقد التبس حب القنص بالحياة العسكرية لدى هذا الرجل حتى جعله يحلم لنفسه ولرفاقه بلباس عسكري للقنص.

الأربعاء صباحًا. انطلقنا عند الخامسة فجرًا وحدنا، بلا ترجمان ولا متاع، والبغال بلا أحمال تتبعنا من بعيد. سرنا بحذاء شاطئ بدا لي أقل جمالًا من نظيره بين صيدا وبيروت،

دونها شيء يستحق الذكر، ناهيك عن أن الطريق تزداد صعوبة كلما تقدمنا في السير. عند العاشرة صباحًا بلغنا البترون، على شاطئ البحر، في خان واسع ذي قبة، اضطررنا لأن نستخدم مع أهله لغة الإشارة كي نحصل على طعام وشراب، وساعدنا في ذلك رجل يتكلم لهجة من اللهجات الإيطالية. أكلنا بيضا مسلوقا وكثيرا من العنب غير تام النضج، ثم استلقينا للقيلولة على حُصُرٍ مدّت أرضًا، حتى إذا بلغت الساعةُ الثانيةَ بعد الظهر عدنا نركب ونواصل المسير.

سرنا في طريق كمثيلتها في الصباح تطل على البحر الذي لا يكاد يختفي عن عين السائر فيها. عانينا خلال الساعة الأولى من عطش شديد مردُّه إلى ماء البترون الرديء الذي لا أظنني شربت أردأ منه خلال سفري.

وصلنا قرية الجبل عند الخامسة عصرًا فنصبنا مخيمنا في كوخ داخل مقبرة تقع وسط البلدة، واتخذ البشر والحيوانات مكانا حوله. قرية الجبل محاطة بسور، لكن لم تتح لي الفرصة لرؤية شيء غير ذلك، لأن قدمي كانت تؤلمني كلما رُمتُ المشي.

عند الساعة الواحدة والنصف كان القمر يلمع في السماء، فأيقظت مكسيم، وغادرنا المكان في الثانية والربع، بعد أن تحاملت على نفسي كي ألبس، لآخر يوم في سوريا، حذائي العالي المشبع ماءً.

من الجبل إلى بيروت. سرنا عبر وادٍ ضيق هو الطريق الوحيدة الرابطة بين بيروت وطرابلس. وفي منتصف الطريق يقع حصن يشرف عليه، مشيد على صخرة، يبدو وكأنه طرف من الأرض ضاقت به فدفعته في البحر.

خليج جونية، في منتصف الطريق، ينفتح فجأة إلى اليسار فيرى المسافر منه جبل لبنان الذي يُرى من بيروت. بدت البلدة نشيطة تجاريا، إذ رأينا هناك عددا من الجمال وبعض القوارب، كما لاحظنا أن هناك حركة بناء دائبة.

قطعنا في نور القمر نهر إبراهيم، أو نهر أدونيس، الذي يمضي ملتفا وسط نباتات عالية

من قصب الخوص. رأينا في عتمة الفجر رجلين أو ثلاثة على تباعد، يكمنون بين القصب، وخمنًا أنهم هناك بانتظار طريدة آدمية.

أما نهر أدونيس، فبدا لي لون مائه أخضر كلون القصب من حوله، يخرج من وادٍ سحيق بين صخرتين أو قل جدارين عموديين من الصخر.

نهر الكلب. جسر شديد الارتفاع يمضي في صعود ونزول، وفي الجبل صور منحوتة في الصخر في وضعيات مصرية، وإن بدت من بعيد أقل إتقانا. بعد ذلك تابعنا السير حتى بيروت في محاذاة ماء البحر فوق رمال مبللة تغوص فيها الأقدام وتلحق الأبدان منها رشات من سنابك الخيل، استغللنا فرصة مرورنا فوقها للانطلاق في سباق.

انعطفنا إلى الشمال فسرنا في طريق من الرمل الأحمر يحيط بها قصب الخوص من الجانبين، ثم قطعنا جسرًا كنا قد جئنا إليه في الصباح ونحن نتنزّه. مررنا هناك ببعض النساء راكبات على الخيل، ورجل تركي في هودج يتبع نساءه، وبعض الأهالي. فلما كانت الساعة التاسعة كنا ندخل بيروت.

كتب في رودس، يوم الجمعة 4 أكتوبر في مستشفى الجذام.

بينما كنا منشغلين بقلع أحذيتنا، جاء السيد سيزار كازاتي يزورنا بصفته من مواطنينا. التقينا كذلك بالدكتور بويي الذي لم نره إلا للحظات خاطفة في الكرمل.

وجوه منزل باتيستا: السيد سيزار كازاتي، يبدو بشعره المستعار الأسود الذي تحمله النظارتان، وشاربه ولحيته المحفوفة ولباسه وعصاه وقبعته الرمادية، كأنّه سائح نظيف الثياب حسن الهيئة، مع سمنة غير لائقة كسمنة رئيسه. ثم الدكتور بويي، الذي لا يسمي البحر إلا باسمه الشاعري «الموجة المُرة»، وهو رجل قصير بدين يتكلم بسرعة وحيوية، يجمع في شخصيته بين جيرمان وبين تيوفيل غوتيي[1]، ويستعمل كلمات علمية ليس يدري

(1) شاعر وروائي وناقد فني فرنسي (1811 ـ 1872) عاشر فكتور هوجو وصار رئيسا للجمعية الوطنية للفنون الجميلة

لها معنى، يحسن الحديث ويعرف من أين تؤكل كل كتف، والخلاصة أنه رجل قذر. أما زوجته وابنه فقبيحا الخلقة ضعيفا البنية، كأن كل نصيبهما من الصحة كان من حظ الوالد. شيخٌ وتلميذه، نظارتان ووجه أمرد وقبعة من القش ونظرة استغراب، كأنهما تسألانك فيم هذا وكيف أمكن ذاك. معلم ألماني مع غلامه، شاب روسي أشقر الشعر أحمر البشرة. ثم السيد كورفوازيي، وهو شاب سويسري من بازل يشتغل تاجرا متجولا في مجال الساعات، لائق المعاملة حليق الوجه نظيف الثياب.

قضينا وقتنا في بيروت في إعداد الأحمال، وتناولنا طعام العشاء ثلاث مرات عند سوكي. قضينا كذلك فترة صباحية عند السيد روجيي، لكنها لم تكن ممتعة كسابقتها الأولى، لأن السيدات كنَّ أقل استعدادًا للحديث، كما بدا لي أنهن من طبقة اجتماعية أدنى من طبقة الأوليات.

الأحد. عشاء عند السيد دو ليسباردا، رفقة أرتم بك[1]. رأيت هناك الدكتور بيتزالوتزا وامرأته القصيرة البدينة، نموذجين مثاليين لمصور يبحث عن الغرابة.

الثلاثاء، الأول من الشهر. في الرابعة فجرًا ركبنا سفينة ستامبول، التي قادنا إليها غلام السيد روجيي على متن زورق. اكتشفنا عند وصولنا أن الجانب الأيسر من السفينة يحتله الأتراك بتمامه مع حريمهم المعزول عن الرجال والمحاط بسياج كالبهائم. النساء، من بيضاوات وسوداوات وشابات وعجائز، كلهن مستلقيات على أسرَّةٍ وبُسُطٍ مُدت هناك، ومعهن زوجة الدكتور بوبي المسكينة وابنه. ولقلما رأيت منظرا أكثر إثارة للحزن من منظر قبعتها البنية المزينة بزهور ذابلة، وهي موضوعة إلى جنب حذاء زوجها على سقف الحجرة. كان هذا الأخير قد قدم استقالته وقرر الاستقرار في القسطنطينية، وقال لنا إنه عمل في خدمة محمد علي وكذا في خدمة شاه إيران.

كان معنا على ظهر السفينة باشا بيروت وشيخها. الأول رجل بدين أبيض البشرة وسيم

---

(1) كان هذا الرجل متهما بالفساد المالي، فترك مصر على عجل، وقد التقاه فلوبير على متن سفينة أليكساندرا Alexandra التي كانت تربط الإسكندرية ببيروت

القسمات، يرتدي معطفا سميكًا طبقته العليا من جلد خروف، بنظارة وسلسلة ذهبية وصدرية من الحرير ولباس أوربي وحذاء مطوي العقب على الطريقة التركية. وأمّا الثاني فنحيف بأنف طويل ولحية سوداء وعمامة ومنطقة خضراوين وهيئة لا تروق للناظر. قائد السفينة رجل إيطالي يتكلم التركية مثل غيره من بحارة السفينة، حليق الوجه إلا من شارب خفيف. أما مساعده فرجل طويل القامة أحدب. هناك أيضا رجل تركي قصير القامة ذو بشرة بيضاء وشعر أسود، يعتمر قبعة يونانية.

قبيل الانطلاق جاءت امرأة شابة فجلست قرب ربان السفينة. كانت سوداء نحيفة، منحنية الظهر شاحبة الوجه، بأساور على شكل سلاسل من حلقات ذهبية تجمع ما بينها سلسلة مثلها، مما يجعل السوار المتكون من ذلك يبدو على شكل قفاز يكتنف المعصم، وعينين عميقتي السواد. إلى جوارها وقفت امرأة عجوز بدينة، بجانب وجه يذكر بوجه جورج، وقسمات جميلة في أدنى الوجه كمثيلتها في تمثال الإمبراطور الروماني فيتيليوس النصفي، ونظرة تشع حزنا.

كانت المرأتان في حداد، كما كان في الحداد أيضا رجل شاب يلبس زيا يونانيا، جاء فجلس معهما بعض الوقت على سطح السفينة قبل أن يغادرهما حين رفعت السفينة مراسيها. وكانت معهما امرأتان زنجيتان تلبسان فستانين أصفرين، إحداهما ترتدي إلى ذلك سترة حمراء، وقفت بوجهها الحيواني وثدييها المتدليين داخل صدريتها متكئة بيديها على حاجز السفينة. رأيت كذلك ابنة الباشا، طفلة في الثالثة أو الرابعة من عمرها، بحاجبين قارب الكحل ما بينهما حتى التقيا.

الأربعاء، السادسة صباحًا: ألقينا المرساة في خليج لارنكا في قبرص. الميناء أمامنا يلقي بظله الأبيض على الماء، والشاطئ القبرصي الذي بدا لي جافا أجرد، لا بد أن ساكنيه يعانون من الحر وقت الصيف، ينمو على جوانبه بعض النخيل.

تقع لارنكا في منحنى من الشاطئ بين الميناء وسفح الجبل. جبل أولمب مدبب القمة مقور بعض الشيء من جهته اليمنى التي تلي الشّمال، تعلوه مسحة من البني الشاحب.

شواطئ قبرص تبدو شبيهة بنظيرتها السورية، وكذا بشواطئ كارامانيا، على كونها أقل ارتفاعا لكن أكثر أشجارًا.

الجمعة. دخلنا جزيرة رودس في يوم غائم شديد البرودة. أما البحر الذي كان هائجا طيلة يوم أمس فلا يزال أبعد ما يكون عن الهدوء، وقد مضينا نتأرجح حتى وصلنا مرفأ المعزل، حيث أمر لنا الباشا سريعا بالعشاء، قبل أن يأتي لزيارتنا ترجمانه والسيد بروس، نائب القنصل الفرنسي.

في مشفى مرضى الجذري في رودس، صباح يوم الأحد 6 أكتوبر / تشرين الأول 1850

رحلة إلى قرطاج

من 12 أبريل / نيسان إلى 12 يونيو / حزيران 1858

الاثنين 12 أبريل / نيسان 1858

راحت ميلاني لتبحث عن عربة. قرع فولوني الجرس. الليلة رائعة والنجوم تلمع، وأنا أدخن وأدخن مردّدا فيما بيني وبين نفسي ترّهاتي القديمة بكاملها.

في مدينة ليون Lyon حيث تمثال نييوركيك[1] يحط من كرامة العالم. ثمة حلاق في زاوية الشارع. أقرأ: مقهى النصب التذكاري.

في مدينة فالانس، أتخمت نفسي بلهفة وتلذُّذ. فرحة عارمة برؤية الجبال وبلاد الجنوب الفرنسي.

وفي مدينة أفينيون، تناولت عصير فواكه بالمثلجات. تحول رفقائي الثلاثة إلى رفقاء آخرين أكثر احتمالا. على اليمين ترعة كبيرة وحصن كبير.

مرسيليا. ها هو البحر الأزرق. عربة للنقل العمومي تحمل امرأتين عجوزين. في فندق باروسيل، كل الغرف محجوزة للماريشال كاسطييّان، لهذا تم منحي في الطابق الأخير غرفة صغيرة. جاءني تلغراف. رحت إلى مكتب البواخر. أتخمت نفسي بطبق حساء السمك bouillabaisse الذي تشتهر به مدن الجنوب. رحت إلى المقهى حيث كان الهواة المارسيليون يلعبون الدومينو.

في الغد - أي يوم الأربعاء - سآخذ حماما. كانت سيدة الحمامات تشكو بعينيها مثلي.

---

(1) الكونت نيوركيرك (1811 ـ 1892) نحات وموظف سام في الأمبراطورية الفرنسية الثانية.

بحثت عن فندق الدّارس وعثرت عليه. صار الطابق السفلي - الذي كان فيما مضى صالونًا - اليوم بازارًا. وفي الطابق الأول كان الورق الذي يغلف الحيطان هو الموجود في الأسفل.

زرنا ظهر سفينة الهرميس Hermus في المرسى الجديد. حديقة الحيوان رائعة؛ وجبال سان لو Saint - loup داكنة جدباء ومغلفة ببيرنق أزرق. شلال يندلق ماؤه بخرير في حين يزأر أسد كما لو كان ذا منفاخ؛ طواويس على الأغصان؛ طاووس أبيض. إنه مكان ممتع. المساء والمقهى.

الخميس. نزهة في المتحف. زيارة ثانية لقصر الدارس. أزقة المدينة العتيقة بمرسيليا. حانوت لبيع السجائر بالتقسيط لا يعرفون ماركة اللاندريس Lindrès. ساحة البورجي Purget. شرطي يعنّف بائع أشرطة من الأثواب. حيطان البيوت المتآكلة تتفتّت. أزقة منحدرة. بيت مؤنّث يسهر عليه س. نساء قصيرات القامة، سوداوات، حاسرات الرأس، إنه طبعا النموذج الإيطالي العربي. لا واحدة منهن بادرتني بالكلام أو لامستني عيناها. يا له من مديح رائع للشرطة....

كأس مالقي في الدارة. جولة في البرادو بمدريد كي نطلب تجهيز طاولة لنا في مطعم كورتي Courty، غير أني لم أستطع الاهتداء لكورتي. إنه سباق لا ينتهي لأن ذلك الحي كان بئيسا. واضطرارا قادتني عربة حتى النهاية حيث تعرّفت إلى الساحة لأني جئتها من قبل مع الأب كوفير.

ثم العودة إلى الفندق. السيد تورايد أو تورين، وهو محام بهيأة إيكس أون بروفانس وهو أبيض بالكامل، مثل راهب للنحات لورميي غُمس في مسحوق السكر، وضع طربوشه من القطيفة لتناول العشاء، وزوجته تنظر إليه. إنه محام من إيكس تنغص عليه حياتَه قروح الأرجل فيصيح: «حذائي...» والأمر نفسه مع الزوجة التي تصرخ: «لا أستطيع انتعال غير الأحذية البالية القصيرة...». وفي الليل دراما بهلوانية حيث يتم إنشاد جميع أنواع الأغاني العاطفية. كانت الرائحة العفنة المنبعثة من المراحيض تزكم الأنف بحيث اضطررت معها للفرار.

الجمعة ظهرًا. الركوب على متن الباخرة، ثمة الكثير من الجنود وزحمة من المهاجرين على السطح. كل هذا انتهى إلى الهدأة وانتعش الجو وغاب الكل في المقصورات. لم أر طوال عمري مستخدمين أكثر إهمالا وصمتا. فأنا لم أتبادل كلمة واحدة مع الآخرين منذ ثمانية أيام. مخرت الباخرة عباب اليمّ وعمني الدوار وأصابني صداع الرأس. وفي المساء ظهر القمر نحيفا ومقوسا كما فرشة حذاء صينية. بدأ الجو يبرد، فانقلبت إلى غرفتي لأخلد للنوم.

مرَّ يوم السبت بكامله وأنا أعاني من الدوار والمغص، من غير ألم في القلب. تناولت عشائي متمدّدًا في مقصورتي. وما أن تناولت الدواء القديم الذي أوصى به الأب بوريللي، وهو عبارة عن خبز مفروك بالثوم، حتى أحسست بتحسن حالتي. وفي المساء أخذت الشاي وحيدا. وفي الليل سمعت تقيؤ رفقائي.

ويومَ الأحد في الخامسة بعد الظهر، صعدت إلى سطح السفينة. كانت أرض إفريقيا أمام ناظري. على اليمين جبال داكنة قليلة الارتفاع، والبحر غامق بحيث إن عبارة «marmora ponti» اللاتينية غدت بمنزلة تعبير واقعي. نحن لا نعرف بالضبط أين توجد سطورا. ثمة ضابط من فيلق الفرسان قصير القامة يشبه شيئًا ما شخصية بنداريس. وثمة وصيفة مقصورات ذات قدٍّ فارع لها عين نصف مغمضة كانت بالهند بقبعة من الحرير أحمر مائل إلى الصفرة ومتهالك. كان المهاجرون لا يزالون حيص بيص في سقيفة الباخرة؛ والجنود ملتحفين ببطانيات سميكة رمادية كما لو كانوا جثثا. ظلت الباخرة تترنّح يمنة ويسرة بحيث تتأرجح معها تلك الكائنات كلها. رجل روسي يلتحف معطفا طويلا ويسمى السيد سوك. كان مريضا ويبدو منفِّرا، ورفيقه رجل طويل القامة أشقر وبه بعض البله يكرر: «الرجال الأقوياء أكثر مرضا، بينما الضعاف يتحملون أكثر، مثلي أنا». لكن الرصاصة الأجمل هي بورجوازي قبيح المنظر، يشبه صانع الحدوات في رواية أسرار باريس لفكتور هوجو، بربطة عنقه البيضاء وثيابه السوداء البالية وطربوشه الأبيض العالي والأعوج المفعوص. ثمة مصير قذر منقوش هناك. فلقد دار بكل الصنائع والحرف، وقد يكون مدرّسًا أو صيدلانيًّا، وها هو يستلّ من جيبه حافظة نقود كبيرة.

نزلنا بمركب مالطي أصله من نابولي؛ والرجل الذي يقوده له خصلتا شعر كبيرتان وأنف معقوف كمنقار نسر، ويبتسم. شعره الأسود يتدلى بنتف صغيرة مثل مجموعة حبال مطلية بالقطران.

فندق المستعمرات: ثمة محلّ تلغراف وعلى اليمين مسجد. وللوصول إلى هناك ثمة «الدار ذات الباب الحديدي» بمزهريتين في الطابق الأول بهما زهور، ويتهيأ لي أنها ماخور. عرب متلفعون بأثواب فضفاضة رمادية؛ وبينهم واحد منهم بالأخص، وهو عجوز، يطارد حمارًا يحمل حطبًا.

الزقاق الرئيس به أقواس تشبه أقواس زقاق ريفولي Rivoli بباريس. عرب يلعبون بالسكاكين ذات المزلاج، وهناك العديد من المقاهي، ومنها مقهى «دوفوا» Defoy في الساحة قبالة البحر. ثمة صخرتان صغيرتان في مدخل الخليج. كانت الباخرة «ليميس» إزاء نظري، أمام سطورا؛ وفي اليسار، على الصخور يرتسم الطريق من سطورًا إلى فليبفيل Philippeville[1]. البحر شديد الزرقة، وطيور السنونو تتلاعب في الهواء. طلبت زجاجة ليمونادا غازية في سطيحة فندق المستعمرات في الطابق الأرضي.

شيدت مدينة فليبفيل في ما يشبه الجرف المنحدر نحو البحر.

الأحد، الرابعة والنصف بعد الظهر

فليبفيل: وأنا أرقب البحر في العمق، أرى جزءًا من الجبل؛ صخرة، وفي اليمين ثكنة جنود. والمدينة في الوسط. وفي الأسفل بيوت بسطوح من القرميد، وهي بيضاء وحديثة البناء. أنا تحت المسجد، الذي بُني على السفح الأيمن (الذي يدير لظهر للبحر). مررت بدرب الكبير، ثمة ورود وصبار الهند وزهور صغيرة بيضاء.

ونحن نتملّى في الوادي نجدُ: في اليسار ثمة الجبل؛ وفي اليمين ثمة أيضا الجبل الذي يلاقيه، وهو كثير الخضرة وبأكمات أكثر قتامة ومناطق ذهبية في بعض الأماكن. وأمامي

---

(1) مدينة سكيكدة حاليا.

أسوار المدينة الحصينة.

التقيت بثلاث راهبات كن يلعبن بطيارة ورق. أما المسجد، حيث أنا، فثمة الكثير من الأعشاب، والطيور تتصادى في تسنُّنات الأسوار. ومقابلي، خلف ثكنة رابعة كومة من التبن كبيرة. وهنا وهناك باقة من زهور الوزّال. أما السماء فكانت بزرقة باهتة.

وخلال مقامي الثاني بفليبفيل، أرى في الليل أكواخ البهلوانات؛ أراها من الأعالي في المكان نفسه. كان ثمة قزمان بين الأطلال، عثر عليهما في المسرح، قصيرا القامة برأس هائل ولباس مخطط. وهو عمل قرطاجي طبعا.

قسنطينة. انطلقنا في المساء على الممشى. كان ورائي رجلان مالطيان، وجندي واحد من الأهالي المحليين وواحد من جنوب فرنسا أو من إيطاليا. كانت العربة تصلصل وتقرقر مثل بطن مليء حتى التخمة. الحيوانات التي ورائي ترغي وتزبد. أراد البدويّ الفرنسيّ أن يمازح الصباحي الذي كان يضحك بالعربية. ظل المالطيون يزعقون، وكل هذا لم يكن له من معنى غير كونه تعبيرا عن فرط الغبطة. يا لها من روائح مقرفة. ويا له من مجتمع. «ماكاينش، ما كاينش» [غير موجود، غير موجود]. على يميني رجل قصير القامة متشح بالقطيفة يتاجر في كل شيء، في التأمينات والأراضي وغيرها من الأمور. كان رجلا من الأهالي.

كانت جوانب الطريق ملئية بأشجار السوحر، والجبال واطئة، ما يجعل المنظر شبيهًا بوسط فرنسا. ونحن نصعد بالأرجل منحدرا، أشار جاري إلى ساحة رأى فيها، وهو يتبوّل مع مسافرين آخرين، ثلاثة أسود رابضة بهدوء وسكينة؛ لقد كانت البلاد مليئة بها.

توقفنا وسط الليل في إحدى القرى. دخلنا مأوى يشبه مآوي إيطاليا. كان عبارة عن قاعة فارغة في الطابق الأول في عمق بهو. ثمة مائدة طويلة، وطاولة شراب ورجال نائمون، ومخازن للشراب. المآوي التي تكون غاصة بالناس تبدو للوهلة الأولى فارغة.

أبصرت بحريق على يميني، وبين البرهة والأخرى صفوف من العربات الواقفة من غير دواب في القرى، والجسور أضيق من الطرقات.

قلّت النباتات وكبرت الجبال، ونحن تابعنا صعودنا. كانت الجبال ذات خضرة غامقة على شمالي؛ أما جبال الأفق فكانت قممها مائلة للرمادي. بدأنا في النزول. عرب بؤساء متلفعون في الأسمال (ليس بينهم ولا امرأة) يلاحقون حمُرا محملة بالأغصان المورقة. ثمة بساتين على جانبي الطريق، شجيرات ورود ونخلة قبيحة المنظر. معزة صفراء من غير قرون ترعى العشب في منحدر على اليمين. وقطعان ماعز.

تتراكب الجبال في العمق الواحد فوق الآخر. درنا من اليسار كي نتوجه لمدينة قسنطينة، وصعدنا على الأرجل الممر اللامتناهي. كان أحد رفقائنا (وهو ساعاتي) يعاني من عرج رهيب يصعد متعمدا على عكازه.

عند أسوار قسنطينة، هناك ساحة غبراء غير مستوية تغص بالعرب. كانت أكواخهم أشبه ببيوت الكلاب وذات سقوف، ما يميزها عن بيوت الفلاحين. وهي من الحجر والطمي، تعلو على الأرض بثلاثة أو أربعة أقدام. الأرضية شديدة الانحدار، والرجال يشكلون كتلا هائلة بيضاء وسخة تطفو في الجو، وما كان سمرةً في هذا البياض هي الوجوه، والسواعد والأرجل. ذلك يفصح عن فقر ولعنة كبيرتين؛ إنهم أشبه بالملعونين المنبوذين في المجتمع. إنهم أناس كانوا يسكنون المدينة وطردوا منها شرَّ طردة.

ولجنا المدينة من ساحة السلاح حيث كان الجنود الزواويون zouaves يمارسون التداريب الاستعراضية. وأمامنا كان ينتصب هرم الجنرال الفرنسي دامريمون. احتشد حولنا مضيفو الفندق. إنه فندق القصر.

السيد فينيار رئيس المكتب العربي. ثمة أنقاض أمام المدخل. ولجنا المكتب من خلال ممرات ضيقة ذات أبواب واطئة، ثم فناء وأعمدة وحيطان مطلية بالجير. كان صالونه يطل على السوق الذي منه جئت، كما على المنحدر الصاعد نحو قسنطينة.

زيارة للصيدلاني الدكتور روبولو تلميذ الطبيب والأستاذ الفرنسي الشهير جول كلوكي صلاح باي، كاتب السيد فينيار، حفيد باي قسنطينة شاب شاحب الوجه ذو هيئة مميزة ومخنَّثة. أخذ له مؤخرا زوجة ثانية فأرهقته عشرتها. قادني الشاب في الأسواق والحوانيت

التي ذكّرتني بأسواق وحوانيت الصعيد المصري. كان الرجال كلهم يرتدون الأبيض ووجوههم سمراء. وأنا أشم، بل أعيد شم رائحة الشرق التي تدغدغ أنفي من خلال هبات ريح ساخن. قمنا بزيارة ثلاثة مساجد. إنها رطيبة الهواء والزرابي تجاور فيها الحصائر. وفي أحدها ثمة رجل جالس القرفصاء يكتب على لوح قرب ضريح ولي صالح. وفي مسجد آخر توجد أشجار تين في فناء يحضن بعض القبور. وفي جامع سيد الختام أشار لي صلاح باي إلى قبر جده. هناك أيضا قبور أخرى. في منطقة محاطة بسياج من الخشب ثمة قبر نسوي محاط بالستائر الصفراء والخضراء. هناك ترقد إحدى جداته، وهي عذراء متصوفة تنكَّفت عن الزواج وصارت ولية صالحة. وقربها يرقد رجلان.

قادني صلاح باي حتى ضفاف وادي الرمال قرب أنقاض القنطرة.

عودة لدى السيد فينيار. نزهة على متن الخيول. ونحن في المنحدر، أراني ثلاثة أشخاص نحيفين وغريبي المنظر. إنهم أكلة الحشيش وصيادو القنافذ. وحين يصيدون منها واحدا يهيئون لأنفسهم بها وليمة الليلة. وهؤلاء الرجال يصطادون الضبع حيًّا ويقودونه إلى قسنطينة ليطلقوه فريسة لنهش الكلاب. وهم حين يرغبون تصيّد الضبع يروحون إلى مغارته ويسدون مدخلها بالقماش تاركين فقط ثقبا. ثم يطلقون أصواتًا تشبه الزغاريد فيتقدم الضبع للمدخل، فيحدثه الصياد: «أيها الضبع ما أجملك، سنطليك بالحناء ونقدم لك زوجا ومجوهرات...إلخ». فيتقدّم الضبع، فيدخل الرجل يده المطلية ببعر البقر ويحك بها قدم الحيوان الذي يستحلي ذلك. فيضع في عنقه أنشوطة يجرها الرجال الآخرون خلفه فيشدونه ويكمّمونه.

ترجّلنا عن مطايانا وداورنا الصخرة في درب محاط بحاجز وولجنا وادي الرمال. ثمة شلالات، والقليل من الماء في مجرى النهر؛ وفي حائط الجرف هناك ثقوب هائلة ذات لون أحمر للطيور. وفي السماء تحلق الصقور في شكل دوائر. إنها سفينة طبيعية بعلوٍّ ينيف عن المائة قدم (ومن هناك كان سكان القسنطينية قد فرّوا حين تم احتلال مدينتهم، نازلين بالحبال. أما الباي، فإن لوحة الفنان الفرنسي جوزيف كورت المعلقة لديه مزيفة ثم هناك ما

يشبه النفق، وحين نتابع المسير نصل إلى القنطرة.

يذكرني نهر الرمال بنهر منطقة غافارني، ونهر سان سابا Saint Saba بفرنسا. أحيانا يتسع الصخر بطريقة بهلوانية. إنه مكان خلاب وشيطاني. فكرت في يوغرطة إذ إن قسنطينية تلائم مزاجه. وعلاوة على ذلك فقسنطينة مدينة حقة بالمعنى العتيق للكلمة.

خرافة: وجد زنجي ورجل روماني نفسيهما معًا في الآن نفسه في ممرّ نهر مع فتاة. كان الروماني يمتطي جوادا. وهو ما سيمكنه من أن يمرر الفتاة كي يتمتع بها. غير أن الفتاة مانعته. منحها الروماني مطيته فعبرت النهر وحيدة. وبعدها عبر الزنجي والروماني. وهناك بدأت المعركة بين الرجلين على من سيفوز بالفتاة. قُتل الزنجي، والفتاة في لحظة المباضعة، مسخت صخرة والرجلان نهرين، الرمال والنهر المجهول... وظلا محكوماً عليهما أن يدورا إلى الأبد حولها وتقبيل رجليها.

عشاء لدى مدير البريد وثلاث شخصيات أخرى. إنهم يعرفون روايتي «مدام بوفاري».

ليلة رهيبة في عربة النقل السريع.

بلغنا فليبفيل في السادسة صباحًا؛ وظللت في سريري حتى الثالثة بعد الظهر.

زرت حديقة السيد نوبلز قبالة البحر. رائحة الورود المتفتّحة عابقة. ثمة فسيفساء وجدت في عين المكان تمثل امرأتين، إحداهما جالسة وتقود غولًا بحريًّا له منقار نسر؛ والأخرى جالسة تقود فرسًا. وبين الأذنين زهرتا سوسن تشكلان لهبا أحمر. وهناك راقصة ثالثة لها خلاخل في الرجلين، ورجلاها وفخذاها بالغا الرشاقة والحسن في حركاتها، والرجل اليمنى منها على اليسرى؛ والفضاء مزروع بالأسماك. البستاني الزنجي الذي قادني راح ليملأ مرشّة ورشّ الفسيفساء كي تظهر لناظري أفضل. غمرتني مسحة من الرقّة والحنان في هذه الحديقة. كان الوقت ضبابيًّا والجنود على السطيحة قبالتنا يلعبون النفير.

وجدنا مشكلة في العثور على عربة. كان البحر هائجًا والزوارق كلها أبحرت. امتطيت عربة ذات عجلتين سقتها بنفسي.

تركنا سطورًا في السادسة صباحًا وفي الثامنة رسونا في حماية رأس الحديد.

كتب في الليل في الساعة العاشرة

والباخرة تبحر ببطء شديد.

اضطرنا الريح الشرقي إلى أن نمضي الليل في رأس الحديد مكثنا يومي الثلاثاء والأربعاء في قلعة جنوة بسبب الجو المتقلب وبسبب مروحة السفينة التي علقت في سلسلة عوامة.

رسونا يوم الخميس ببون. إنه شاطئ ينسحب منه البحر. كانت الجياد تعوم على مسافة كبيرة من الشاطئ. والفضاء كان قفرا وبئيسا ومقفرا. وهيبون عبارة عن تلّ في وادٍ بين جبلين، منحنٍ شيئًا ما للشمال. صعدنا إلى القصبة. ثمة سجناء عسكريون يدكّون ترابا أبيض في حر الشمس. كتابات مغيظة على الجدران بحيث دنست كل شيء. السيد دو بوفي والسيد دو كرافت يعتبران أن ذلك أمر بسيط.

الحاكم رجل رفيع القامة وأشقر ذو لحية صغيرة. والقس أشبه بالكاتب الفرنسي فينيلون، غير أنه أسمر اللون. ونحن ننزل المنحدر، أبصرنا بغواصينا النابوليتانيين يخرجون من كنسية القديس أوغسطين حيث راحوا ليبتهلوا لله أن يزيد في أجرتهم.

حكاية تميمة السيد دو كراف. إنه يعتقد فيها مهما قال. هل ملكة الإلحاق التي يمارسها الروس موطن قوتهم؟ ألا يتوجب وجود عنصر جديد وأصالة ما كي يتحقق النصر؟ ما الذي سيقدمه لنا عرق بشري من قبيل العرق الروسي؟... إنهم رائعون كآلات ميكانيكية.

أمضيت الليلة أدردش مع القائد. فهو يحفظ عن ظهر قلب العديد من أبيات الكاتب اللاتيني فرجيل وفكتور هوغو. وهو أحد الفولتيريين القدماء الذين تحولوا إلى كاثوليكيين، بحيث إنه يقوم بجميع واجباته الدينية. هل هو صادق في ذلك؟ إنه رجل ذو جبهة عريضة، وذو حماس، بقامة قصيرة وشفاه سميكة تنبئ عن فم شبقي.

حكاية: في بولينيزيا، تقوم النساء كلهن حين يبلغن من العمر عتيًا بمنح... [فروجهن] لتلحسها الكلاب. وهن يصرخن صراخا رهيبا حين يتم قتل أحد هذه الكلاب.

الليل لطيف ورطب ومقمر. غير أن القمر ينحجب بين الفينة والأخرى. النجوم تلمع والبحر هادئ.

على يميننا نمر أمام «الأخوين» اللذين يبدوان أشبه بفيلين ضخمين أو بفرسي نهر أو أي حوت غريب خارج لتوّه من البحر. هذه الكتل الصخرية الهائلة تبدو مخيفة تحت ضوء القمر في الصحراء. الأجراف التي تتوارى منذ فليبفيل تنتهي في الرأس الأبيض. ينحدر الشاطئ ويستمر واطئا. وفي اليسار في عرض البحر ثمة جزيرتا القاني.

الدخول من حلق الوادي يذكرني بمصر، فالأرض واطئة والجدران بيضاء، وثمة الأزرق الأزرق، وشبح رجل أو ظل منزل يرتسم هناك. الجمارك، وقارب، وشراعان كبيران. الرياح مواتية للإبحار، ونحن نتمايل. واللون الأصفر للبحيرة يذكرني بنهر النيل. فندق فرنسا في إحدى الأزقة مثل فندق النيل. عدد وافر من النساء يخطن ويكوين الملابس في البهو. الغرفة صغيرة.

جولة في الأسواق يقودني فيها السيد دو كراف. «بلغات» [شراشِف].

مقبرة تشرف على المدينة. ونحن نعود للحي العربي، رأينا عيساويا يراقص الثعابين. كان رجلا عجوزا ونحيفا في أسماله. نواجده العليا البارزة التي لا يزال يحتفظ بها فمه تجعله يشبه وحشا كاسرا. أخرج من كيس ثعبانين برأسين مسطحين. وأمامه لاعب طبلة ونافخ مزمار. كان طفل يرقص أو بالأحرى أنه كان يتقافز، والحلقة التي كونها العرب حول الحاوي ذات لون أبيض رمادي والناس في الغالب يغطون رؤوسهم ووجوههم، وسواعدهم سمراء.

وفي اليوم التالي (الأحد)، تجوّلنا في المرتفع مع السيد دوبوا في وسط بساتين الزيتون. الأرض تصعد تدريجيًّا، وهو ما يذكرني ببعض أراضي فلسطين. ومن حين لآخر ثمة حاجز بين الأشجار وهو من بقايا السواقي. الأرض تحت أشجار الزيتون محروثة. صعدنا إلى رأس تلَّة شديدة الارتفاع منها نشرف على البحر والبحيرة وراء مدينة تونس وسهل مجردة.

ضباب. عدنا إلى أريانة. تبدو واضحةً السطيحات البيضاء للبيوت ذات المصاريع

الخضراء المتهالكة والكل يسيطر عليه في الخلفية ارتفاع جبال زرقاء. بساتين الزيتون وأشجار خرّوب هائلة. أسيجة من الصبار حيث صارت الأوراق الشائخة عبارة عن أفنان.

سطيحة المقهى: يهود ويهوديات بواقيات ساق من الذهب. مومس، مطلية أجفانٍ متلاصقةٍ كليةً. وسيدة، قريبة القنصل الإنجليزي ممتطية جوادا أبيض. عودة إلى السيد دوبوا، والسيد سان فوا، والسيد دو كراف. أمسية في النادي.

الاثنين 26. يوم ضائع . زيارة للسيد وود، وروسو ودو مارسيل. زيارة للحي العربي.

الثلاثاء. انطلقت في الثامنة مساء في سهل تونس مشيا على الأقدام. لم يعد ثمة من أشجار زيتون بعد أن صارت نادرة. ثمة منبسط شاسع من العشب المخضر الآن. وعلى اليمين، في ملتقى طرق خلف الوادي هنالك مقهى. يصعد الطريق، وسياجات من الصُّبار. المرسى. خيمة الدّاي في الساحة وفي الخلفية صفان من المدافع. توقفنا عند أحد الماريشالات. ثم الفندق.

مالكة. دخلنا إلى أقباء مقوسة هنا وهناك، حيث يعيش أناس بؤساء. وهي أقباء غائرة جدا بحيث نلامس سقفها باليد.

صعدت إلى سان لويس، منغلقٌ من الأسوار. تناولت غدائي في غرفة متداعية الحيطان. ثمة حارس فرنسي، وهو وصيف قديم للعقيد بيليسيي. وقد جئت بمعيّته من مرسيليا إلى مالطة. ثمة تمثالان في الحديقة.

نزلت نحو المرسى. منزلان أحمران في العمق يمينا. جلت في الميناءين. التلة مليئة بشقائق النعمان المتناثرة وسط حقول القمح الأخضر، وكذا بزهور صغيرة صفراء. نزهة على شاطئ البحر، كان حصاني يسير في اللُّجة. الأسوار النازلة نحو البحر أشبه بالفواصل، ما الغرض منها؟ بقايا مستودع سفينة ورصيف قبالة سان لويس بالضبط. لا بد أن طريقا مباشرا كان هناك لركوبها. محار، المطر، صهاريج ماء، وشيخ عجوز متلفّع على شاكلة تمثال.

عودة للبئر الارتوازية. عائلة رئيس العمال. مطر. وقت الركض على صهوة الحصان.

استراحة في الرأس البحري. أتراك لطفاء في عربات جيدة.

في المساء توقفنا في أحد المقاهي الفاخرة. ثمة مقعد طويل جنب كل حائط. وفي الوسط منصة طويلة. ثلاثة موسيقيين يهود: أعمى يعزف على آلة المندولينا، أنفه معقوف؛ أعمى ويتمايل برأسه باستمرار مثل فيل؛ وواحد شاحب السحنة، ذو جبهة عريضة، يعزف على ما يشبه كمانا لا جسم له؛ ورجل ضخم الجثة يضرب على طبلة باسكية. صبي في الثانية أو الثالثة عشرة، ببذلة في لون نبيذ إسبانيا، مثقوبة في المرفق (كان يعزف على الماندولينا بريشة طائر)، هامة عالية، وسحنة شاحبة، والمنخاران ثابتان ودقيقان، والأسنان طويلة بعض الشيء والفم في شكل قلب والشفتان مكتنزتان. ظل على ذلك الوضع ونظره مرفوع. في السقف عدد كبير من أقفاص الطيور، وكنا نسمع أصوات تلك الطيور التي بدت وكأنها لا تستمتع بالموسيقى.

على الحائط صورة بالطباعة الحجرية ملونة تمثل امرأة؛ وصور مناورات عسكرية (إبينال). وفي الخلفية أسدان ضخمان يخرجان لسانيهما.

كان المتفرجون جامدي الملامح. رائحة التبغ، وعبق المسك والبخور يملآن المكان. رجل من علية القوم يمر بالبخور تحت أنوفنا. أسماله المرقعة من كل الألوان تمنحه صورة كائن يلتحف حراشف سمكة مبرقشة.

الأربعاء 28. اقتنينا عطورا وحزاما وقنينات صغيرة. مطر ووحل كاسح. متحف الراهب بورغاد. المدارس الدينية. عشاء لدى السيد روسو. جولة في المساء في الأزقة المليئة بالوحل؛ غدا الوقت متأخرا لكي نروح للتفرج على الكراكوز.

حين نخرج من باب الخضراء نجد المنبسط على يميننا، والبحيرة وحمام الليف قبالتنا، وإذا ما استدرنا نحو حمام الليف، نرى في الأول المنبسط، ثم البحيرة، وإذا ما كان جنبنا الأيمن جهة باب كنيسة سان لوي أمامنا يبدو المرسى ومجال معشوشب والبحر، وحمام الليف قليلا إلى اليسار وزغوان في الخلفية.

الخميس 29، وهو يوم كتابة الرسائل، كتبت فيه رسالة لأمي. وفي المساء قمت بجولة في ساحة القصبة مع السادة سانت فوا ودوبرسايرت الخ. كان القمر رائعًا والصوامع مضاءة حين وصلنا إلى الساحة. في اليسار مقاهٍ غاصة بالرواد وصاخبة، تنبعث منها موسيقى زاعقة، مع أصوات ثاقبة تعلو عليها، وأمامها شجرة خرّوب هائلة قرب الحائط العالي للقصبة، وهو حائط يقطعه نصفين وبشكل عنيف غلافٌ كبير من الظل يبدو كما لو كان استمرارًا للأرض، والأرض (في الظل) تبدو كسجاد.

كانت السماء ذات زرقة بالغة الصفاء والعمق، بنجوم لها لون اللؤلؤ، وهنا وهناك فوق السطوح البيضاء ثمة الأزبال والنفايات أو الأطلال التي تصير تلالا تضيع في الظل. وقبالة القصبة، على اليمين شيئًا ما، أكمات، ونخلة تتعالى في السماء الزرقاء. وطبول تضرب، وأصوات تغني. كل ذلك كان بالغ المرح وذا لطافة لا توصف. ونحن نمر من هناك أبصرنا بكراكوز. كان ذا حدبة ولباس يشبه اللباس الإسباني. تسارع العرب لرؤيته: «برّا، برّا» (اذهب للخارج).

رأيت أنا والسيد كراف كراكوزا آخر بدا أفضل من السابق. وفي قاعة ضيقة وطويلة مختنقة بالناس، كان عرب متزاحمون على مقعدين، في أعلى المسرح، رجل يصنع السلال، وأحمد خادم السيد كراف، الذي صعد هناك بمساعدة مِجَثم. لم يكن بعد شيء يظهر من وراء الشفاف، وبين المقعدين - في الممر الضيق الذي تركه الزحام - كان رجل يمشي بإيقاع، رافعا ركبته عاليا، أو يرقص من غير أن يحركهما، محركا ردفيه على الطريقة المصرية (لكن من غير أن يتقنها). ما كان جميلا هم الموسيقيون الثلاثة الذين كانوا من وقت لآخر، وبفواصل منتظمة، يردّدون ما يشبه اللازمة، أو أنهم كانوا يفكرون بصوت جهوري على طريقة الجوقة. كان ذلك ذا طابع درامي، ويبدو أنني فهمت. أما الكراكوز فذكره كان يشبه عامودا، وهو ما يجعل الأمر في النهاية لا يتسم بأي طابع فاحش. ثمة العديد من الكراكيز. وأعتقد أن هذا النوع في حالة انحطاط، إذ يتعلق الأمر فقط بإبراز أكبر عدد من الذكور. وأكبرها كان له جلجل بحيث عند أي حركة انثناء للأرداف كانت تجلجل، وهو ما كان يثير الضحك. يا لها من فرجة بائسة في نظر إنسان ذي ذوق رفيع، بل في نظر رجل ذي مبادئ.

شاهدنا أيضا مسرحا لخيال الظل يرثى له في حجرة صغيرة لرجل مالطي في الحي نفسه.

الجمعة. زيارة لقصر الباي. لا شيء أروع من البهو المزوَّق بالعصابات السوداء على خلفية المرمر الأبيض. وفوق، ثمة زخارف من الجبس. وحيطان الغرف مزينة بمربعات الفسيفساء الصغيرة. ولا مربع واحد مليء بالزخارف يشبه الآخر، وأحيانا تتشابه المربعات المتقابلة. أمّا السقوف فرائعة، بنقوشها وتزاويقها الخضراء والزرقاء والذهبية.

والأثاث (بأسلوب الإمبراطورية، والملكية المستعادة، من ساعات حائطية مذهبة ذات تماثيل، والكنبات بخشب الأكاجو)، ومعه التصاوير الحجرية الملونة للعصر، يبدو أنه ينتهك حرمة هذه المفخرة من مفاخر العمارة العربية.

الأمر نفسه بخصوص قصر المنوبة الذي زرناه في العشية. التقينا بدواً مسلحين بسيوف كبيرة. قنطرة ماء إسبانية. حي الباردو. حديقة المنوبة تفوح عطرًا. العديد من الأعمدة عليها مزهريات مليئة بالنباتات المزهرة. سقف ذو أعمدة صغيرة زرقاء. حرفه مذهّب بحيث يبدو ذلك مثل نصول سيوف زرقاء خيوطها من ذهب. ثمة بستاني فرنسي له نصيب من البلادة وأفطس الأنف.

عدنا عبر البحيرة خلف تونس، ووجدنا فيها سربًا هائلًا من طيور النُّحام. أكمة. الحي العربي. قمنا بجولة حول المدينة وعدنا أدراجنا عبر الساحة. تلَّة. الحي العربي. تجولنا في المدينة وعدنا أدراجنا عبر الساحة. وفي المساء في الحلقة.

السبت فاتح ماي. أخذت رسائلي للقنصلية مررت بسرّاج. امرأة يهودية منغلقة خلف سُتُر تتدلى بوضوح.

في اتجاه عتيقة Utique منبسط. وعلى اليسار جبال واطئة بتموّجات كبيرة زرقاء. وفي اليمين ثمة قطعة أرض تحجب عنا الرؤية.

وفي طرف هذا المنبسط ثمة منبسط ثان. تكفُّ النباتات عن تغطية المكان فجأة بعد أشجار الزيتون. وندخل للتوّ في منبسط أجرد. تنحجب الجبال، وفي اليمين ضريح وليٍّ

مهجور. مرّ أمامنا بدويّون مدجّجون بالأسلحة. بين أشجار الزيتون قتل الراهب دو بوغو.

انتهى الوادي. ثمة جبل صغير، وفجأة يظهر منبسط آخر نخاله شاسعا. وهو يبدو منبسطا كراحة اليد كاملة. وصلنا بعدها مباشرة لفندق القنطرة.

وادي مجدرة واسع كنهر بابّوم في شمال فرنسا. وهو ذو لون أصفر. الجبال تظهر على الشِّمال. قطيع كبير من الخرفان البيض ذات الرؤوس السوداء. ساعةً بعد ذلك، وصلنا إلى منزل الغول.

الدوار (القرية) يوجد بالأحرى في مدخل ممرّ جبلي. ترجّلنا من العربة ورحنا لصيد العقارب، وكان الجبل أجرد ومغطى بالأشواك الصغيرة. صبي من الدوار بعصًا معقوفة. الجرف على يسارنا. انحدرنا ودخلنا كوخًا وجلسنا على أخشابٍ بفرح شبه طفولي. إنها ألواح سريره التي فصلها عامر بن سميده ليقدمها لنا.

دخنا الغليون في الخارج، في الحظيرة المصنوعة من بعر البقر المجفف. بقرات صغيرات في الباحة منبطحات أرضًا بحيث كدنا أن نسقط فوقها. كلاب الدوار تنبح. لها تلك العادة في النباح المتواصل بلا انقطاع طوال الليل لإبعاد بني آوى. وإذا ما مر رجل (أو أحست بخطر ما) فإنها تنبح بطريقة أخرى لإيقاظ السكان،كان كوخنا مبنيا من الطين طوله أكبر من عرضه. ثلاث أعمدة تسند السقف المصنوع من القصب، ومصباح معلق ينير المكان مترنّحًا. تنبح الكلاب، ونحن ممدَّدون على الألواح.

منتصف الليل، البرغوث كثير.

ليلة مرحة، بوغو وحده ينام؛ سانت فوا لا يحلم إلا بالطاقية والمسدس، وبين الفينة والأخرى، ينهض أحدنا ليغذي المصباح بزيت علبة السردين.

وفي الغد الأحد ثاني ماي، انطلقنا باكرا لنزور أطلال عتيقة.

قنطرة زاتة، وهي قنطرة عتيقة تقود إلى بيزرت. وزانة نهر صغير على اليمين على بعد ربع فرسخ من الدوار.

زهور صغيرة زرقاء، وأخرى بنفسجية غامقة، وأخرى صفراء. السماء غائمة، ورفاقي يصطادون السمان، والطلقات تفرقع وسط أصوات السنونو فوق حقول القمح الخضراء المليئة بشقائق النعمان والزهور، وحين نهضنا للرحيل كان ثمة شريط أزرق في السماء، من جهة الشرق.

صادفنا في طريقنا، على اليسار دوّارين للبدو. جمال.

يصعد الطريق شيئًا ما، منحنيًا ناحية اليسار ليبلغ تلّا في شكل زاوية قائمة. النخلة الأولى والثانية ثم الثالثة على اليسار. سهول منبسطة. وفي الوسط على بعد فرسخ ثمة حطام منازل ونخيل هنا وهناك وكوَم من الحيطان. كنا نسير على بقايا رصيف روماني.

على اليسار مداخل أقباء وأنفاق. تعلوها تلال صغيرة تبدو اصطناعية وذات زوايا قائمة.

على اليمين ترتفع قبعات التلال الواطئة جدا لتنتهي فجأة وتترك السهول عارية إلى ما لا نهاية جهة الشرق. وعلى اليمين، ثمة ما يشبه نصف الدائرة، عبارة عن جبال ذات أساس واسع، مستديرة القمة، مغطاة بالأحراش والأشجار وبها قطع من الخضرة المتفرقة.

تلة طولها مائة خطوة وعرضها خمس وعشرون، وسطها طريق، وماء وأعشاب متطاولة. تتعالى بوضوح نخلة في اليسار. قطيع يرعى الكلأ في البعيد يرسم أنصابا سوداء في الأفق.

انعطفنا إلى اليسار. ثمة حطام منازل لا شكل لها. ركام كبير من الأحجار كما لو أن زلزالا شتّتها هناك. وعلى يسارنا ينغلق التل في انحناء.

بلغنا قمة السرك قرب قنوات الماء. أدرنا الظهر للشمس المشرقة فبدا أمامنا السهل الذي انسحب منه البحر. مياه قنوات الري تأتي من الجبل على اليسار (حين نستدير نحو الغرب).

صهاريج الماء تشبه في البنيان صهاريج قرطاج، نصفها تحت الأرض. لكن بالرغم أن بوغو Bogo يزعم أنها تتواصل فيما بينها فإنها لا تتقاطع أبدا.

الوجه الشرقي للأطلال الكبرى ينظر لفضاء نصف دائري ربما كان هو المسرح. والساحة

بُنيت في المدخل الغربي من السرك الروماني الذي غاب كلياً تحت الأعشاب.

ثمة حنفية تحت نخلة مصفرة، وعريشها السفلي كان مهملا بشكل جذاب. رجل وصبي يدعسان الغسيل برجليهما، كما جرت عليه عادة العرب، وهو ما يخلق إيقاعًا. العجوز له تينة في الأنف.

عدنا إلى الدوار ممتطين حميرا. قبالتنا جبل يشبه الجدار. وجبل منزل الغول يتقدم بين وادي منزل الغول وسهل عتيقة ويفصل بينهما.

قنطرة مجردة.

حين نترك الجبل وراء ظهرنا نجد أمامنا، على بعد 25 خطوة بعد الفندق، مرتفعًا من الأراضي المتقاربة. سور عتيق موازٍ للنهر. بحيرة. شطآن موحلة عبارة عن أجراف عاتية. قطيع من الثيران في عراك.

نحن في منارة سيدي بوسعيد نيمِّم شطرنا جهة الشرق: في المستوى الأول، ثمة البحر الذي نشرف عليه من علٍ. يمتد منعرجًا نحو اليسار. وقبالتنا جبل الرصاص، فينحدر الشاطئ ليصل إلى السهل المحدودب ليستمر حتى حمام الليف، وتحت رجلي ثمة رأس قمرت. والبحر في جزر جهتي اليمين واليسار.

في الجنوب هناك قرية سيدي بوسعيد والبحر وحمام الليف بقرنيه، وخلفه زرقة فاقعة عبارة عن مساحة متماسكة هي السليمان. جبل آخر هو المحمدية يمتد، وفي اليمين يظهر زغوان في الخلف. زغوان أزرق. حمام الليف بخضرة ضبابية وخطوط صهباء. أما المحمدية فعبارة عن طوف ساحلي طويل يكاد يكون مستقيما.

وأمامنا رأس حلق الوادي. قرطاج بكاملها توجد تحتنا، بيوت بيضاء، ساحات خضراء عبارة عن حقول من القمح.

في الغرب، هناك السهل الممتد نحو مدينة تونس. وفي اليسار رأس قمرت، خليج وجبال واطئة في التحت.

وفي الشمال ثمة عرض البحر.

جمل على سطيحة يدير عجلة بئر: كان على ذلك أن يقع في قرطاج.

جمل في الجو، أذناه الهائلتان تجعلانه يشبه ضفدعة.

الثلاثاء: انطلقنا من تونس عند الساعة الثامنة والنصف.

دوار الشط. عمال. الدكتور هيبّ، والفسيفساء في فناء داره، والغداء على الطريقة الإنجليزية.

سيدي بوسعيد. زقاق منحدر. المنار. عدنا للعمّال.

سرنا بمحاذاة شاطئ البحر. سفينة الترفيه التي يملكها الباي. أوقفتنا الصخور فعدنا أدراجنا عبر منحدر صعب الصعود.

منظر من قمة رأس قمرت: الرمال على اليمين وسبخة. وعلى اليسار الخضرة والأشجار المحاطة بالنخيل، وقبالة ذلك جبال بورتو فارينا بلون رمادي لؤلؤي.

سرنا على اليسار. ها هو بيت الدكتور دافيس: رواق عارٍ لولوجه محاطٌ بسور من الإسمنت، وفناء وسلم وحنفية مربعةٌ ورواق عربي مغطى. السيدة دايفيس، نحيفة وممشوقة القدّ، بعينين صغيرتين وعظام بارزة. كانت على ما يبدو مستعدة لقبول الدعوة إلى رقصة الفالس. الآنسة نيلّي روزمبرغ التي تشبه غجرية قبيحة، بأهدابها الطويلة، وشفتيها المكتنزتين البضتين القصيرتين والمقطعتين. بعض من زغب الشارب، وأهداب مثل المروحة، وعيون أكثر من حوراء ولماعة وإن كانت ذابلة. وجنتان مورّدتان، بشرة بيضاء، مقلتان رائعتان وغارقتان. كانت زيارة بهيجة.

سباق في شاطئ سبخة الغوايل وهي تتصل بالبحر من خلال ثلاث فتحات بين ثلاثة أطواف جليد ساحلي مسطح. والتراب حين يوجد يكون مغطى بباقة صفراء مزهرة تشبه زهرة الزّال. انحسر الماء، وبقيت برك كبيرة جافة مغطاة بالملح الذي يشبه الثلج. وبين

قعدات رمال الكرم، يبدو البحر بفظاظة غير مشهودة كما صفيحة من أزرق النيلة، وتبدو السماء الزرقاء أمامه شاحبة، أما الرمل فأشقر، والنوارس تحلق بأبهة؛ وكل هذا يبدو كزبد الموج وهو يتطاير، ندف كبيرة تذروها الرياح في الهواء.

عدنا من السبخة محاذين الوجه الغربي للكرم. على يسارنا غابة زيتون، وقطعان خرفان برؤوس سوداء وأذناب مربعة. والثيران والبقر ليست بأكبر من العجول لدينا.

التقيت الباي مرتديًا ما يشبه لباس اللوردات.

تعشيت وحدي في غرفة بالفندق الإيطالي بالمرسى.

الثلاثاء في التاسعة والنصف ليلا.

حين يأتي الواحد منا عبر شاطئ البحر من المرسى متّجهًا إلى سان لوي، يكون سيدي بوسعيد على يمينه، وعلى يساره البحر. ثمة سقاية ماء زلال عند الخروج من المرسى على اليمين. حيثما يحفر المرء هنا ينبع الماء الزلال.

في البحر ثمة صخور مربعة حمراء؛ والأجراف الصخرية أيضا عموما كذلك. والوهاد التي تقطعها بشكل منتظم تجعلها تشبه أعمدة لا شكل لها منصوبة بشكل مائل.

هناك أربعة خلجان: الكرم، مرية، سيدي بوسعيد وسان لوي، وسان لوي خليجه على يساره.

والأرض كلما اقتربنا من سان لوي تنخفض، محصنة من جهة سيدي بوسعيد بالصخور. وفي خليج سيدي بوسعيد لا نرى البتة حمام الليف؛ ثمة أنف جبل واطئ، وفجأة نبصر بالعروة التي يوجد في أقصاها وفي الأعلى سان لوي. ومن هذه النقطة البارزة توجد على يميني العروة وسان لوي والبيتان الأحمران. وقبالتي زغوان؛ وقليلا إلى اليسار حمام الليف.

من قمة أنف الجبل وأنا أراقب الشمس (في العاشرة صباحًا) رأيت قبالتي جبل الرصاص أسمر وضبابيًا، والبحر أمامه وحوله أزرق، والشمس يراقص فيه النجوم. على

اليمين في العمق ثمة زغوان. سحب على قمة حمام الليف تبدو نحاسية، وحمراء في الأساس، وسمراء ذهبية فوق.

حين أدرت الظهر للشمس رأيت في المستوى الأول جبل الرأس نفسه وهو يتقدم، ليمنعنا من رؤية خلجان سيدي بوسعيد، والمرسى والكرم.

الحصى، وهو عبارة عن أحجار رملية، ذو لون أبيض وأحمر كستنائي. بعضه به شرائط غامقة نخالها من الحديد. أحجار صغيرة لصق الماء، بها ثقوب كثيرة بحيث تشبه الإسفنج الكبير. بعضها ينقسم طبيعيًّا ككتل من الخرسانة.

من جبل سيدي بوسعيد، وظهري مُدار لبيت خازندار، في المكان الذي يؤخذ منه الطين الأحمر من على تلة: قبالة المرسى، ثمة منبسط، ومضيق، وخضرة، وبيوت بيضاء، ثم جبل الكرم، وفي اليمين ممر الكرم، مع القمة التي تغلق خليج المرسى. ومن وراء جبل بورطو فرينا، وفي لون رمادي وضبابي بصفائح بيضاء، ثمة منحدر الممر الجبلي بلونه الرمادي المائل للوردي. وقربي على اليمين، المنحدر وقرية سيدي بوسعيد، وفي اليسار، في العمق جبل ضبابي وأزرق مائل للرمادي، والسبخة، والرمال، ومنبسط يكاد لا يَبين.

وأنا أتأمل سان لوي: في المقابل ثمة منبسط، وسان لوي بعده، وعلى اليمين خليج تونس، وعلى اليسار الخازندار، والبحر الأزرق لا المخضرّ وحمام الليف.

ولكي نعود إلى هناك، اتبعنا جرفا واسعا من الطين الأحمر. كان يشبه موجات من الدم المخثر. عثرنا فيه على بقايا حفريات، وسطح قبة. ينقسم الجرف قسمين، وفي أسفل جانبه الأيمن، قبالة البحر ثمة أنقاض هائلة وسور.

تلك الأنقاض كانت فعلا هائلة، فسمك الجدران كبير. والحائط المنعزل على اليمين (تحت دار الخازندار) من الحجر المنحوت.

البحر يدخل في اليابسة، وعلى بعد مائتي قدم ثمة مدخل قبب وسور واطئ، وعلى بعد مئة قدم، هناك كتلة هائلة تشكل أُسّا في البحر، وحين ندخلها فهي عبارة عن قبة كبيرة أكبر

مني مرتين وأنا ممتطٍ حصاني.

وفي الخارج، في جانب سان لوي، ثمة ما يشبه الجبل بأكثر من.60 خطوة عرضًا. وهو مبني بالحصى البحري. وبعده مباشرة، تشكل الصخور التي تنزل مانعًا طبيعيًّا. أطلال مختلطة بالصخور، ثم خلال 60 خطوة (تحت القلعة)، أسير بمحاذاة سور هائل كان بلا شك يشكل رصيفا.

ومن أعلى تلّ، والقلعة على يساري، والصهاريج على يميني، في البحر، ثمة أطلال.

هل هو رصيف أم بقايا برج مربع؟ فهو في كل جانب بطول مائتي قدم.

تحت الصهاريج تعود الأنقاض للظهور: في شاطئ البحر وفي البحر، ثمة أعمدة بيضاء وسمراء في الرمل، وثمة مربع آخر للأنقاض في الماء. وخمسمائة خطوة من هناك ثمة تكوم مربع تماما قبالة واجهة سان لوي.

كان لا بد أن يكون هناك ممر، إنه طرف أرضية الطريق أو الزقاق، كما قاعدة برج.

أبصرت في اليمين سيدي بوسعيد وفي الأسفل الصهاريج. وعلى اليمين تتقدم الأنقاض محاذية للماء، وعلى يساري البيتان الأحمران.

لاحظت (تحت الصهاريج) في شاطئ البحر أحجارًا منحوتة تشكل قاعدة للكومة وأربعة وأربعين سورًا تنزل جهة البحر. هل كانت تلك أسوارا؟ ففي بعض الأماكن، يكون ما بين السور السادس عشر والسابع عشر ممتلئاً.

انطلقنا من المرسى إلى قمة المرسى ووصلنا هذا الصباح إلى رأس الأراضي الحمراء.

وبعد الخازندار، أسفل القلعة على يسارها، ثمة أنقاض تنزل جهة الجرف غير العالي، وثمة سور وكتلة صخور وقمّة قبّة وأنقاض لا شكل لها.

وقفت وظهري للبحر أنظر للقلعة: ثمة أسوار تنزل مثل تلك الموجودة على شاطئ البحر، ربما كانت أسوار قصر في أرض مسطحة.

وخلف القلعة، التي نمنع من دخولها ثمة موقعان مربعان وبقايا سطيحتين. اليسرى منهما (وظهري للقلعة) أوطأ من الأخرى. ثمة سور بسمك حوالي أربعة أقدام. والسطيحة العليا مساحتها ما يقارب 150 قدمًا طولًا على خمسين عرضًا. السطيحة الثانية، الأكثر سعة وطولًا، هي التي تحتمل الأولى.

وخلف السطيحة الثانية تبدأ الصهاريج التي نرى أعلاها بحيث يبدو الأمر شبيها بملعب خيل. لقد تم طبعًا حفر الأرض. نحن لا نعرف الصهاريج كلها، فهي تسير في عمق الأرض حتى منتهى التجويف. وفي الزاوية الغربية للصهاريج ومنتهى لها ثمة قبة مبنية بنفس طريقة الصهاريج غير أنها مجزوعة الرأس، فهل ينتهي الرأس بشكل حاد؟ أمّا الداخل فعبارة عن مقعد دائري من الآجر والحجر المرصوف المتناوبين.

في قلب الصهاريج كلها، وفي كل حوض يوجد تحت الجبس صفان من الآجر التقليدي الذي يستند عليه الحجر المرصوف لا تتصل إلا من الجوانب. من الثقوب في القبة تدخل أشعة الشمس. ذباب يئز. أعشاب تتدلى من الثقوب مثل مصابيح، والحوذي خليفة مع حصانينا متمدد في المدخل في النور. طائر ينطلق في السماء بضربتي جناح وآخر يزقزق. غبار دقيق وصمت وطبقة خضراء على الجدران، ماء كابٍ وعميق في بعض الأحواض.

فوق الصهاريج ثمة منحدر غير وعر، وربوة لها شكل كثير الانتظام.

الحفريات: فسيفساء رومانية، حيطان بالجبس الأبيض بشرائط واسعة بنية ذات نقوش بارزة.

في أسفل الصهاريج، تحت القلعة في اليمين ونحن نرنو للبحر، ثمة ركام كبير من الأنقاض في كافة الأوضاع الممكنة. وحين نبلغها تبدو مثل أنصاب عتيقة غير محدّدة المعالم، قطع قبب، قطع كبيرة من الأنقاض شبه ممدّدة منتصبة لذاتها من غير ركيزة.

سباق إلى حلق الوادي: لسان من الأرض يسير وهو يضيق، خطوط الأسوار، ساحة أوروبية، مقاهٍ.

عبرنا إلى الطرف الآخر من القناة. يبدو حمام الليف منقسما، بأمواج مائلة، ونبرات لونية زرقاء ورمادية رائعة.

في أحد المقاهي أتأمل صورة الكروبي، أول مغامر من تونس كان قد جعل من نفسه موديلا فنيا لأمير جوانفيل ليجسد مهنة كثيرة الفحولة. يبدو ذا هيئة ورعة، بطربوش من الدوم وسترة بحار، فأناقته تتصل بالبحار وموديل المرسم. له لحية طويلة، والعديد من الخواتم في الأصابع، وصلع في مقدمة الرأس، بحيث يمكنه أن يكون موديلا لصورة القديس يوحنا.

عدنا إلى المرسى عدوا سريعا بالجياد. كانت الشمس مثل درقة حامية تغيب على يسارنا.

الخميس 7 مايو / أيار. خواطر حررت على ضوء القمر. الشمس تشرق منظورا لها من سان لوي. بدءا ثمة بقعتان، بقعة النهار الطالع على اليمين، والقمر فوق البحر على اليسار، أمّا الشمس تغدو بعيد ذلك ذات خضرة بالغة الشحوب، والبحر يبيضُّ بفعل انعكاس ذلك الشريط الغامض الكبير، في الوقت الذي تتسخ في البقعة التي يرمي بها القمر فوق البحر، والشريط الأخضر للماء يمتد في الشمال على مدى البصر في نبرة برتقالية شاحبة. لم يعد ثمة إلا القليل الأقل من النجوم المتباعدة في السماء، والجزء الجنوبي والغربي من قرطاج بكامله مغمور في بياض ضبابي، أما مرعى حلق الوادي فإننا نميزه من هنا. المرساتان، الجبال البنفسجية المائلة للسواد الشاحب، المغلفة بالرمادي، وجبل النار يبدو واضحا. وبعض السحب الصغيرة في الجزء الأبيض من السماء فوق الشريط البرتقالي.

سفينة (هل هي سفينة صيد؟) تبدو في الأفق كنورس أسود هائل. من جهة تونس ثمة السماء المتلألئة والجبال البنفسجية السمراء. السماء ذات زرقة ذهبية بالغة. وفي سفح حمام الليف يبدو البحر مائلا إلى الخضرة. لا تزال هنالك نجمة على يمين القمر من ناحية تونس. تبدو ديار حلق الوادي البيضاء بوضوح، والرأس الصالح يظهر بوضوح أيضًا، أمّا ديار سيدي بوسعيد وجبل النار فيغيبان خلف ضباب بنفسجي، ومعهما كل شيء عموما.

الجزء الشرقي من السماء الآن أصبح ورديا؛ وما يسود مباشرة في خط الأفق شيء أبيض

كما لو كان مغبرا. وخلف جبل الكوبوس ثمة جبال أخرى غير متحددة، والأمر نفسه خلف حمام الليف.

من ربى الأراضي الحمراء في سفح سيدي بوسعيد ونحن نوجه نظرنا لقرطاج، يغيب تفاوت ارتفاع الأرض الذي يوجد من هنا إلى ربوة بيرصة. وبيرصة تغطي عني جزئيًا البحيرة التي أراها من جديد مع تونس.

الجبال ثم سبخة الغوايل على يسار بيرصة. حلق الوادي، المراسي والبحر وحمام الليف. البحر أخضر، والشمس ترتفع خلف الأراضي الحمراء أسفل سيدي بوسعيد، ومن رأس قرطاج يرسم رأس الكرم ما يشبه الهلال.

ومن الهضبة (التي لا تزال توجد فيها مآثر الفسيفساء) على يمين الصهاريج هناك المنظر نفسه، غير أنه منظر أجمل وأشد قربًا.

دون شك أن ميغارا زوجة هرقل كانت هنا وأن القبور كانت في الأراضي الحمراء. بيرصة تنفصل نهائيا عنا. سهل تونس بكامله، وطرف البحيرة، وتونس الوردية؛ كل ما هو على يسار سان لوي، المراسي، حلق الوادي، البحر، حمام الليف، يرى جيدا بالعين المجردة. وإذا ما استدرت يمينا ثمة السبخة الزرقاء، محفوفة بخط أشقر. أرض واطئة جدًّا بحيث يصعب بلوغها. ومنحدر رأس الكرم مغطى بالأشجار السمراء المائلة للخضرة.

من هناك، ونحن ننزل نحو سان لوي تبدو الأرض في شكل ملعب للخيل. تبدو القبّة بوضوح، ثم يتسع ذلك حتى التل العرضي الذي ينزل من المرسى نحو البحر. هذا التل ضيق عند مدخله (الآتي من المرسى).

ثمة في السفح الشرقي لسان لوي وادٍ صغير آخر وربوة أخرى.

ومن بين القطع التي يُحتفظ بها بسان لوي ساعد أيمن بكمّ مزخرف.

ومن هضبة الكرم في غابة الزيتون ونحن نرى نحو الشرق، يشكل سيدي بوسعيد ما يشبه الحدبة، ثم ينحدر كل شيء نحو اليمين. يتقدم رأس قرطاج تحيط به مياه البحر من

الجانبين، وفي اليمين قبالته حمام الليف.

الأراضي الحمراء في سفح سيدي بوسعيد توجد بالضبط قبالة هضبة الكرم حيث توجد سراديب الأموات،

وسبخة الغوايل، عكس ما خيل لي، مغلقة تماما. لكن في الشتاء، حين يكون الماء أكثر، تعاود الاتصال بما يجاورها.

بعد هضبة الكرم، ثمة وادٍ صغير عرضي، يأتي من الرمال في شاطئ البحر ويسير نحو البحر، ثم هناك تل هو بالضبط رأس الكرم؛ لكننا لا نراه لو نظرنا إليه من جهة البحر.

الجمعة 8. نمت طوال النهار. الزكام يلمّ بي.

السبت 9. كتبت بعض الرسائل.

الأحد 10. رحنا إلى مدينة بنزرت. الطريق حتى عتيقة معروفة. أخذنا غداءنا تحت الجسر. أحجار. مسدس. بندقية. وينطلقون. «حلوف، حلوف» (خنزير بري).

تركنا دوارنا على اليمين، وصعدنا الطريق الأبيض الذي نراه من الجسر. سرنا حذاء خلفية الخليج الصغير. ثم الشاطئ من جديد، والأحراش، والخضرة، وسقاية على اليمين، ياله من سرك طبيعي. وفي عمق الأفق على اليمين شيئًا ما ثمة قرية كبيرة بيضاء في الخضرة وبين النخيل. عبرنا القرية. ومن فوق نبصر بالبحر. نترك الكثبان على اليمين ونصل المدينة.

بيزرت. من الزاوية الغربية لأسوار المدينة الحصينة، على ربوة صغيرة في المقدمة، تظهر أسوار بيزرت. على اليسار منحنى الخليج، ساحل رملي فاتح ورمال في شكل ربى في العمق تشبه أمواجًا عالية. وفي الخلف، خطوط الجبال.

أمامنا ثمة المدينة، ولسان الأرض الذي منه جئنا، الأسمر في اليمين والأخضر في اليسار، وبحيرتان: أصغرهما أبعدهما؛ والثاني أقرب إلينا، ويستمر في شكل قناة تسير لتتّصل بالبحيرة الكبيرة على اليمين. وفي الوسط ثمة جبل مرتفع في شكل هرم؛ وفيه أبقار وحشية.

كانت بيزرت توجد إلى الغرب أكثر من اليوم. على الربوة في شاطئ البحر، ثمة قرصان من الماء كما في قرطاج، قريتان بيضاوان على ضفة الماء خارج الأسوار. وفي المقدمة هناك ما يشبه التلّ عليه قلعة. والبنايات الإسبانية شيدت في الجهة الغربية على أنقاض رومانية.

من أسفل العالية، أمامي على اليسار القرية على الجبل في بياضها الواضح على خافية سماء ذات زرقة كابية نحن الآن نداور هذا الجبل. وفي الأسفل خط من صبار الهند. وحين نستدير نجد أنفسنا أمام وادٍ أخضر. مع صفائح سوداء. وفي العمق البحيرة الكبرى لبيزرت كما صفيحة من المعدن، فالشمس تضرب فيها والسماء كاملة البياض.

أحراش شائكة على اليمين واليسار؛ ماء وسلاحف وآبار بين سفحين منحدرين مقعرين ومليئين بالأزهار (كما في بروطانيا الفرنسية). منظر لسهل عتيقة، شاسع ومنبسط وذي خضرة مائلة للسمرة، والبحر في الخلفية ثم جبال حمام الليف.

وحين نصلها ثمة باب وجسر على اليسار نعبره، ثم بحيرة محاطة بأسوار على اليمين. إنه المرسى، وقبالتنا رصيف مع حانوت، وبعض أشجار الصفصاف لها أشكال شجر التفاح.

بيت السيد مونج، قنصل فرنسا، وفيه على اليمين بهو من غير أعمدة. كلب صيد ينبح. ترجمانان، أحدهما نحيف وأسمر مريض بالصدر، وتركي يشبه يوسف.

زيارة للسيد سوشينابيس، وهو يهودي يتعتع وذو حركات متكررة في الوجه، يشبه فيورنتينو غير أنه أقبح منه. السيدة كوسطا المعروفة من زمان بحسنها، عيون حوراء، تتكلم بسرعة. عدنا للعشاء، ومنهكين تمددنا على أسرتنا. وصل الأب جيريمي والسيد كوسطا. نوم لا تكدره البراغيث.

في الغد أخذنا حماما عربيا.

المدينة جذابة، إنها عبارة عن مدينة بندقية شرقية شبه مهجورة. ماء القناة بأربعة أو خمسة أقدام عمقا وشديد الزرقة. والقبب التي نمر تحتها تمتلئ من تحت. دور محطمة، جمال مطلية بالقار ممّددة أرضا.

الأب جيريمي بشوش يشبه شيئًا ما بورلي بشاشيته على قفاه وبشعره الأشعث، روحاني ومضحك يقدم النموذج «لعاشقي الحياة» إنه ذلك النعت الذي يطلقه على نفسه. كان بورلي الراهب السابق لبوفارق، وقد أكل بالتجربة لحم الأسد وابن آوى والفهد والضبع. وهو يزعم أن لحم الأسد لحم لذيذ، كما أنه يربي خنزيرًا بريًّا، وبما أن ليس له إلا أربعة مرتادين للكنيسة فإنه يهتم بدود القزّ ويربيه.

السيد كوسطا رجل أسمر طيب القلب يعشق القبعات العسكرية ويرتدي سروالا مخضرا، مطرزاً بخيوط الحرير في الجوانب. والآنسة ابنتهما فتاة مكتنزة وسمراء حمراء من بلاد الكو Caux في وسط فرنسا، ترتدي فستانًا ورديًّا. وفي الحائط صور حفرية وحجرية: مرور القديس برنار، وموضوعات دينية وسوقية: الزوج، الولد، المرأة النفساء. أرونا رسالة جميلة من الولد الموجود في مدرسة داخلية بتونس، ثم إننا انسحبنا.

بعد الغداء، نمنا على أسرتنا. تجوال في القناة الكبرى، مصيدة للأسماك، حواجز من القصب. رجلان إيطاليان من نابولي يقوداننا.

بعد أن تركنا القارب درنا حول الأسوار من جهة البحيرة الكبرى. ثمة جبل في الوسط، وبه جواميس وحشية. دواب تتجول على طول الأسوار. سمعنا صدى طلقة نارية. وقفة استراحة لنتأمل البحر. بعد العشاء سرنا إلى مقهى في طرف المرسى. السيدة والآنسة كوسطا كانتا معنا بوشاحهما على الرأس.

الثلاثاء 11 صباحًا. العودة من المدينة إلى معسكر البارحة. القريتان البيضاوان الموجودتان أسفل المدينة كانتا مرتعًا للقتلة وللقراصنة. المدينة الرومانية كانت في الجهة الغربية على الربوة. ونصف المدينة الجديدة موجودة في جزيرة. المرسى القناة ثمة ما يشبه جسر ريالطو. من فوق نرى شبّاكًا يسدّ البحيرة بسبب السمك.

زرنا محل دود القز للأب جيريمي. دودة القز تنام مرفوعة الرأس.

قمنا بوداعاتنا. أناس وأماكن أخرى لن أراها أبدًا فيما بعد....

مررنا من جديد تحت أشجار الزيتون والقرية الجذابة التي مررنا بها يوم الأحد. تركنا طريقًا عتيقة على اليمين وداورنا الجبال. أحجار، قصب، سلاحف (في العالية)، أشجار زيتون، البحر على اليمين والجبال على اليسار: إنها تبدو كأمواج عالية خضراء منسحبة تنحدر كي تعاود حركتها. بعد أشجار الزيتون، ثمة منبسط، ثم إننا نصل إلى شاطئ البحر أو بالأحرى خليج غار الملح. أسيجة صبار الهند ممزوجة بخضرة أخرى. أشجار لوز كثيرة، وشجيرات سنط. ما هي هذه الزهرة البنفسجية التي توجد دوما في أسيجة صبار الهند؟ حديقة جميلة ذات شبابيك أوروبية على يسارنا تبدو مهجورة ومهملة. قلعة، وأحد الضباط ظل جامدا يراقبنا. كنيسة ورهبان. السيد موسكو إيطالي حافي القدمين في خف وسخ. فرنسي بشاشية عالية خلته أحد موظفي الباي، وهو ابن لأحد المعلمين الفرنسيين.

عشاء. بيت في منحدر. الراهب أصلع ومتواضع ومستعجل. سكنا في شقة رئيس الدير. قيل لنا بأنه لا يمكننا الصعود للسطوح حتى لا نثير حفيظة العرب. في الكنيسة فناجين القهوة بالحليب المغروسة في الحائط هي التي تصلح جرنا للماء المقدس.

مدينة غار الملح متكئة كلياً على سفح الجبل. مقهى جميل كنا فيه في المساء.

الأربعاء 12. في الصباح جولة على الأرجل للجبل قصد التطلع للمدينة. انطلقنا في الثامنة صباحًا ودرنا حول البحيرة. السهل والشمس. وأولئك الرجال تركونا عند ممر المجردة. مشينا اليوم كله في السهل الذي لا ينتهي. جبال غار الملح ظهرت حوالي الثالثة بعد الظهر رمادية بطلاء وردي. وفي القمة، ثمة بقع بيضاء كالثلج. على امتداد شساعة السهل، في الأفق، ثمة نقط مربعة سوداء؛ إنها أكواخ البدويين المبنية من الطين.

مررنا من النهر بلا ماء، وهو السرير القديم للمجردة. من جانب حلق الوادي، دخان يتطاير لصق الأرض لعدة مرات. هل هو سراب؟ الأشياء العليا، التي يحجبها هذا الدخان تبدو مغلقة. على اليسار جبل الكرمة، وفي الأفق غابة الأريانة. والسبخة على اليمين.

مررنا تحت ضريح ولي صالح في قمة الجبل. الصخور العرضية تبدو كأنقاض. غابات الزيتون وقطعان هنا وهناك. كنا شاهدناها تمكث في الماء في المجردة وفي البرك الكبرى.

فريجي، الزنجي المرافق لي ارتدى لباسا مضحكا. وجوابه عن كل شيء: «عربي». كان سائس حميرنا ينام بعض الشيء. لقد دخن الحشيس الليل بكامله، ومن حين لآخر كان يغني.

عودة في عربة عارية يقودها مالطي. قابلنا في الطريق السادة دوبوا وفريهان وآخرين. عشاء مع السيدين كراف وكافاليي.

الخميس 13. تناولت مسهِّلا. تلقيت رسائل من أمي ومن بويلهي Bouilhet. بعد الغداء، زيارة السادة دوبوا وكافاليي وكراف، ومحادثات حرة. فريجي نظف ملابسي وشمَّع حذائي.

الثالثة والربع بعد الظهر

الجمعة 14. مراسيم تقبيل يد الباي (البيعة). رحت في السيارة المشرعة الصفراء بصحبة فريجي في دثاره الفضفاض الأسمر وبقبعته البالية. الباردو كان على يميننا. بغال وجياد وعربات نقل متوقفة. المدخل: جسر عبارة عن ممر بحوانيت، درنا على اليسار، قبة، فناء مربع محاط بالبنايات. قبة أخرى، فناء، سلم وبهو.

رجل بدين يحمل عصًا حمراء ذات ثلاثة سلاسل، يصرخ بصوت رائع. ظهر الباي وجلس على كرسيه المصنوع من عظم الحوت. وراءه سيف وبعض المسدسات مع كيس النشوق والمنديل. كان شخصا متعبا، ساذجا أشيب بأهداب طويلة وعينين نعسانتين، يغيب تحت المذهبات والصلائب. كان الناس الواحد بعد الآخر يقبلون راحة يده التي وضع مرفقها على مخدة. كانوا كلهم يضعون قبلتين على الراحة: قبلة، ثم يلمسون علية اليد بالجبهة ثم قبلة ثانية.

يمر أولا الوزراء، ثم الرجال ذوو العمامة الخضراء ثم أصحاب العمامة المدوَّرة. العساكر بدلاتهم مدعاة للشفقة. إنهم ذوو عجيزات ضخمة ملفوفة في سراويل لا شكل لها، وأحذية مهترئة، وكتِفيات مربوطة بالخيوط، وعدد لا يحصى من الصلبان والتطاريز المذهبة.

والرهبان بيض وبئيسون وبلداء: والجوّ المتزمت هو نفسه في كل مكان، فاللاتسامح في رمضان ذكرني باللاتسامح نفسه في صيام الكاثوليك. انتهى توارد العسكر، ثم جاء دور الرهبان مرة أخرى. يعود الباي إلى بيته، فيعاود البرّاح الصياح.

تقود عربة الاستعراض تسعة بغال. عربة عربية، والسائس يركب على بردعة وسط الأثقال. أربعة أو ستة بغال، عجلتان، سقف من القصب، والكيس محمول على الأساس الخشبي ومشدودة بالحلفاء.

السبت. تكرار ما قمنا به أمس: الهيئات القنصلية، سحنات إدارية، واستعراض الألبسة الغالية. أدخلنا السيد روسو. دعوات العلماء والأعيان. راحات الأيدي المبسوطة، فيما لا يزال تقبيل اليد مستمرا. تناولنا الغداء لدى السيد دو لافيرن في العشية في ساحة القصبة. إفريز حري بميكيل أنجلو.

الأحد. زيارة للسيد دايفيس. العشاء عند الثالثة مع الطبيب وقائد السفينة التي ستقوده إلى الرأس الصالح، ومعه السيدة فرانكلين ووصيفتها الآنسة روزمبرغ (نيللي). إنها امرأة فارعة الطول، وبقوام مجدول، من غير كورسيه يشد الخصر والصدر، ببشرة سمراء ذهبية وشفاه دقيقة وملتوية، وفم واسع وأسنان رائعة، العينان بالغتا السواد، والحاجبان بالغا التقوس، وهي تبدو دائما باسمة. ثمة شيء من الخدر والمرح في كل هذا.

عدت إلى تونس عند الساعة السابعة على جواد صعب المراس.

الاثنين. عودة من المعسكر: غبار وريح، والقمح الناضج يتحرك تحتها، وهو ما يصب على حقوله برنقا يغلف النبرة الوردية. جمال. النظاميون. اللانظاميون. سباق الفروسية في قلب الغبار. جولة مع السيد دووا في الأعالي. قلعة ومقبرة تركية قديمة. من الأعلى نرى البحيرتين وقرطاج قبالتنا. مقالع الحجر مائلة إلى الصفرة.

الثلاثاء. سباق في حمام الليف. خرجت من المقبرة القديمة ثم غابة الزيتون. انعطفت يمينًا وصعدت الربوة الأولى. ثم جرف. في الأعلى كان فريجي قد فقد برنسه، ثم إنه عثر

عليه. نزول بسرعة، دُوار، كلاب، ثم صعود. الغيوم تعكس بقعا من الظل على السهل والبحر.

نزلت بحذر فائق. حمامات، مقهى على جانب اللجة. محارات صغيرة زرقاء. وفي الطريق إلى حلق الوادي، ثمة بساتين وأشجار تين، وقنطرة من الخشب، والسفن على اليمين. قرية رادس بيضاء ونظيفة، مكان مقدس. راهب في باب مسجد يؤذن للعصر لأن المسجد لا صومعة له. إنه موعد صلاة العصر للمسلمين، فيما يشبه لقاء فونطينبلو قرب باريس عندنا. يأتي الناس هنا، بعضهم ليقضي فيه أوقات الفراغ مع عشيقاتهم. التقينا ضابطًا للجنرال خير الدين على بغلة.

الأربعاء. موقع أوذنة الأركيولوجي.

على شط البحيرة وحل، والمحمدية مهجورةٌ، ونخلة وحيدة على اليمين. فندق كبير وبه العديد من الجمال الباركة، وحقل شعير. نزلنا في منحدر سهل. أوذنة على يسارنا وتبدو كما لو كانت عند سفح زغوان. الأطلال الخربة مشتتة هنا وهناك، قناة الماء كما صف عواميد بالميرا. وفي اليمين الصهاريج. حظيرة، وعدد هائل من الثيران والأبقار. التقاويس متوازنة والجص لا يزال في حال جيد. القرية بكاملها تصاحبني. تلاوين سوداء، شمس وكلاب، أسيجة من الحجر ومن الأحراش اليابسة.

مشيت على الأرجل بين الأعشاب الصلبة. الطويلة والصفراء. باقات من الأشواك (كما في سهل أثينا). انزلقت في ثقب. صهاريج أخرى تشبه حمامات تيتوس برومًا على ما يبدو، وإذا ما هي كانت صهاريج فهي لا تشبه صهاريج قرطاج ولا عتيقة إذ إن بناءها مختلف اختلافًا تامًّا فهو أكثر انتظامًا ونظافة. سرنا بمحاذاة قناة الماء. العودة عبر المحمدية. جرف واسع وناشف. موجة من الفرح: غنيت أنشودة مع الغروب وبدأت في صفق كرباجي. العودة إلى تونس في الساعة السادسة.

الخميس 20. عشاء لدى السيد وود. في المساء كان هناك السيد مويني والسيدة روسو. سهرة لدى السيد دو كراف، ثمة موسيقيون يهود رأيتهم من قبل في مقهى. قبل أن أتجه

لدى السيد وود، عرجت على السيد كافاليي لزيارته. إنه داخل بيت حري بشخص أعزب، مزهريات زهور في النوافذ، وقط صغير، وثلاث أو أربع غرائب وطرائف.

331 الجمعة عند الرابعة والنصف. عشاء لدى السيد دو طافيرن مع السيد دو بوفي، دردشة دينية.

ليلة الخميس والجمعة نمت متأخّرًا بسبب طرودي ورحت لتونس منهكًا.

السبت. رحت عند الساعة الثامنة إلا ربعًا عبر الباب الذي في الجنوب.

السهل الأول (سهل الباردو). مررنا بين طريق الباردو والبحيرة على اليسار. على اليمين تموجات واسعة وهادئة للجبال، وعلى اليسار البحيرة ثم تلال صغيرة رمادية، وخلفها جبال زرقاء. حين مرت ساعة بدأنا في الصعود. الطريق على صخرة صارت ضيقة، ثم انفتحت أمام السهل الثاني الشاسع في شكل ملعب للخيل. وفي مدخل ذلك السهل على اليسار، غابة السرو وقصر الباي. جبال، ولا نرى سوى زغوان. في الخلفية جبل أزرق. على اليمين تضيق الرؤية، وفي الأسفل خضرة شاحبة.

توقفنا في الفندق الرائع لبرج العامري. قمت بقيلولة في الأعلى. نافذة عبارة عن ثقب مربع. وتحت يدي، تحت السرير ناي. بيوت كبيرة صامتة. وحول الفناء ثمة كوات مقوسة.

يضيق السهل وهو يرتفع ببطء ونسير في ممر واسع يسمى عرقوب الجداوي. وهو مغلف بالصفصاف البري، ومن بينها باقات بلون أشد اخضرارا ولمعانا، وبأوراق بيضاوية، ثم نزلنا، والأفق ينتهي على اليمين. ساحة واسعة وخالية. الآبار. السقايات: وخزان الماء.

امرأة عجوز تتخاصم وأحد فرساننا. خيام نصبها الباي لضمان أمن الطريق. إنها تشبه آبار قصير.

نصعد. على اليمين خط طويل من الجبال الواطئة. الخط الأول دائمًا أسود والثاني رمادي ممهور بالأزرق. أسدل الليل ستوره، والقمر يتبعني على اليسار.

المنظر الثاني للصفصاف، غير أنه أكثر توزعًا. سهل مجاز الباب في عمقه تراكم من الجبال الواطئة المائلة إلى الزرقة المصطفة الواحد تلو الآخر. وحين نكتشف السهل تبدو الجبال كما لو أنها تغلق عليك الطريق. ثم تنزاح شيئًا ما لليسار كما لو أنها تنزلق بشكل غير مرئي. تكون الجبال مرات على اليمين ومرات على اليسار كما لو أنها تتنقل.

قنطرة القريشية، القرية على اليمين في الأعلى. إنه مكان تلاقي نهر الصورية ومجردة. ثمة قوس كبير واثنان جانبيان ونافذتان رومانيتان: كل هذا يشبه قنطرة الأوروطاس قبل الوصول إلى سبارطة. آثار حيطان قديمة طبعًا. الأنقاض المرسومة على الخارطة تشبه أنقاض قرطاج من ناحية المواد. أليس هنا جسر هاملكار؟ ثلاث ربى قبل الوصول، ثم يتسع السهل ليغدو أكثر انبساطا. الشعير ناضج، إنه أشقر موحَّد في الأرض وأزرق وردي في الأفق.

انطلاقا من الجسر ندخل في واد مجردة.

مجاز الباب. تحت المسجد رجال في المقهى. رجل يمر في ضوء القمر يحمل الجمر في طست على رأسه.

مارست الكتابة في الطابق الأرضي للفندق. خابية هائلة موجّهة لكي أغتسل، صعب عليهم إدخالها من الباب.

في المكان الأول للصفصاف مشينا على الرمل. في الجسر كانت الصخور تملأ الطريق. المجردة صغيرة ومنغمسة في الأرض.

ليلة رهيبة بعضات البراغيث، وأنا ممدّد في الفناء. الجمال دخلت في منتصف الليل واستعمرت المكان.

الأحد. رحلنا عند الساعة الخامسة صباحًا بالضبط. البرد قارس. عبرنا جسرًا ونحن خارجون من المدينة، والطريق تتبع الجانب الأيسر من الوادي. قطعة من أنقاض، مربع من الآجر يشبه برجًا. سهل آخر والأفق محبوس. عبرنا نهر مجردة من ممرّ مائي مخصَّص

لذلك. وقبالتنا قرية السلوقية، وشجيرات دوم ودفلى. والضفة المقابلة مليئة بها بحيث نخالها تعريشة.

يصب نهر مجردة في أسفل الجبال. على اليمين تبدو هذه الأخيرة رمادية مع بعض البقع لتستحيل إلى البياض تدريجيا. في اليسار الطريق محدودة وواطئة، لم نعد نسير في جرف متسع إلى هذا الحد أو ذاك، وإنما في وادٍ حقيقي بقعر منبسط وجرفين. أشجار زيتون، هي ذي الأولى التي نصادفها منذ تركنا مدينة تونس.

مدينة تستور على اليسار بيضاء ونظيفة. صومعتان ومقبرة على اليسار. باب قصير مهلهل. حلاق. سوق على طول الزقاق الرئيس. التقينا برجل من قسنطينة يعود إليها راجلا. عوائد العرب في كي أبنائهم بالفحم لجعلهم أقوياء (هيرودوت): نخالها أمارات نفط قديم. قوائم أفراسنا تعكس ظلالًا ناحفة على الرمل بحيث نخالها زرافات. بعد مدينة تستور عبرنا مرة أخرى نهر مجردة على قنطرة، ثم دخلنا في باقات الأحراش الشائكة في الجبال. تلك الموجودة على اليسار تظل ضبابية، لكن تلك الموجودة على اليمين أصبحت حمراء أكثر فأكثر. صخرة بارزة كبرى جرداء تشبه عرف ديك.

موقع دقّة. نمنا تحت شجرة صفصاف وارفة الظلال، ذلك ذكّرني بلحظات الاستراحة بسوريا. والبراغيث تذكرني أيضا بسوريا.

ثلاثة أطلال مهمة:

قوس نصفي مبني من الحجر، قطره 80 خطوة.

بقايا مأثرة مربعة بالحجر المصقول من غير إسمنت. بقيت منه خمسة زوايا.

3.نفسه لكنه أكبر في الأسفل: هناك توجد الأحجار السليمانية، وفي الخارج ثمة عمود مطروح أرضًا من 9 أمتار ونصف طولا، وأخرى ناعمة، وقطع أفاريز بأكعاب زخرفية. وما تبقى واقفًا من المأثرة واضح . حجر بثقوب وثوابت وأوراق الأقنثة.

أما المأثرة الكبرى فلم يبق منها سوى الزوايا وجزء من الحائط الغربي. والباقي هي

حواجز علوية مصنوعة بأحجار عادية، وأما الأنقاض الصغرى فعديدة.

كان قبالة المدينة مسرح طبيعي، وعلى اليمين الجبل رمادي مائل للحمرة، والصخرة الموجودة على اليمين حين نخرج من تستور هي هنا (تحت شجرة الزيتون) قبالتنا على اليسار امرأتان آتيتان نحونا على حمارين.

وعلى مستوى «الجلا» ينتهي الوادي فندخل في ممرّ جبلي واسع مليء بالأشجار والأكمات. جرف في الخلفية ينعطف نحو اليسار. وحين نستدير، ثمة صخرة تبدو كقاعدة نصب هائل اندثر، وبعد ربع فرسخ، ننزل الهضبة، والوادي الجاف الذي نراه في الجانب الأيمن يتّصل بالطريق الذي نتبعه. دخلنا إلى هضبة بيرصة وبها أسود. الهضبة ليست منبسطة بالرغم من أنها تبدو كذلك. شجر زيتون بري ثم أرض بوار. انعطفنا يمينًا للتوجه إلى دُوقة. جبل في شكل قبر على اليسار شيئًا ما. صعدنا بسرعة، بساتين زيتون. وصلنا إلى القرية، كلاب تنبح. كتابة على حائط منزل. الشيخ. معبد: أعمدة أربعة بالتاج الكورنثي المضلّع، وفي الطبلة قطعة من منحوتة (جناح وساعد) وطبقة السطح تسندها الحوامل، وفي الأسفل، كعاب وبيض وعُصابات، وهو ما بدا لي متماشيًا مع ذوق بعلبك. عمودان عرضيان فقط، وفي العمق لا تزال خلفية المعبد بادية للعيان.

على الجانب الغربي من الوادي ثلاث كوم من الأنقاض أو الصخور. كومة أخرى منها في الوادي المخضر بفعل حقول الشعير والأبيض في بعض المواقع، والجبال في السفحين أقل رمادية لأننا كنا في موقع عال جدا، وفي المقابل وأنا أرى واجهة المعبد ثمة ربوتان ثم العمق.

تعشينا بالكسكس، وأبلغني قاسم سؤال العرب إن كنت أعرف «نساء من طبيعة أخرى»، فأخبرتهم أن ثمة واحة منهن في البلد. فأنا في بلاد لوكيوس أبوليوس صاحب الحمار الذهبي والملقب بأفولاي.

ليلة على السطح، القمر مضيء. جبهة المعبد، والبيوت البيضاء، والهضبة الزرقاء الغائرة في الضباب.

الاثنين. انطلقنا في الساعة السادسة. نزلنا المنحدر المنعطف نحو اليمين. نهر صغير يسمى وادي الرمل، شجيرات دفلى، وثلاثة ضفادع تتصادى. خرائب على اليمين: من الصعب التعرف على طبيعتها غير أنني أميز بينها أحجار سليمانية. من العسير أيضًا التمييز من بعيد بين الصخور والأنقاض، فهذه الأخيرة تكون تقريبًا دائمًا فوق ربوة.

الجبلان الموجودان في خلفية الوادي اللذان يشبهان ركام تراب هما حسب زعم قاسم قبرا أخ وأخت. «الخواتات» أي الإخوة.

ونحن نحاذي دائما السهل، نصادف البدو. شربت الحليب وأنا ممتط جوادي. بعيدًا على اليمين ثمة صخرة بها حفرة كبرى. سيدي عبد ربه، بقايا قوس نصر (أو باب). قاعدتا عمود من كل جانب مصنوعة من حجر عريض مقدود. إفريز مرتفع عن الأرض بحوالي اثني عشر قدما. ثمة إفريز آخر من الشكل نفسه أبعد منه باثني عشر خطوة. وضريح الولي الصالح جنبه على اليمين.

أحجار متناثرة في النواحي. وعلى حجر به ثقوب تثبيت ثمة رأس المسيح في إحدى الحزات. أشعة وحلقة كبرى. هل تلك حلقات أم حبل تصفيفة الشعر؟ بعيدًا من هناك بقايا باب آخر (أو قوس نصر) وقربها طريق. تركنا سهل القرص (الذي يحمل اسمه بسبب البرد القارس).

سهل آخر طويل، صالح للمناورات العسكرية. تلال واطئة خضراء في اليسار، رمادية وخضراء في اليمين. وفي العمق جبلان رماديان ببقع بيضاء مائلة إلى الزرقة. والرياف وراء ذلك الموجود على اليسار.

نحن في سهل بن نجاة، وحين نستدير، ينحجب الجانب الأيسر من التلال. في الخلفية على اليمين، تلة تشبه ظهر سلحفاة. يرتفع السهل، فنصعد وننعطف يسارًا. طريقة الخرفان في السير للاحتماء من القيظ أنها تمشي في خط وكل خروف يضع رأسه جنب فخذ الآخر الذي يتقدَّمه.

فندق برج المسعودي. شجار مع جزائري بسبب جيادنا. دخل السي المسعودي في نهاية الشجار. بندقية صيد. أحد رجاله يحمل صحنا من الطيور الصغيرة، وهو رجل أبيض نظيف، وديع، بعينين زرقاوين وشاشية على الكتف، أنيق. إنه صياد أُسود، بحيث قتل منها 32 أسدا. وهو يتمتع بوقته جيدا، ويأتي بها ينيف على العشرة من النساء ويفرط في الأكل والشراب، ويرشف قهوته بتؤدة. قبل بماء الحياة الذي قدمته له وطلب مني القنينة.

استمررنا على اليمين لأن الطريق واسع. أحراش ماكي وأخرى شائكة. بلغنا دائرة مغلقة واسعة من جهة اليسار. وأمامنا جبال واطئة. نهر صغير هو وادي اللوز. بعد ذلك دخلنا الممرات الجبلية الخنقة القديمة الجذابة: ثمة شجيرات دفلى، وأشجار زيتون برية هائلة، ثم على هضبة منحدرة بعض الشيء مائلة نحو اليمين جبل كاف، مثل أفاريز متوالية.

وفي العمق، في منتهى الأفق، ثمة ما يشبه أعلى قالب سكر مكتنز شيئًا ما غير أنه أسود. كاف وراء الجبل الأخير ذي اللون النحاسي ببقعة بيضاء.

على طريقي يمينا التقيت صبية بدوية مرفقها في يدها وخدها بين أصابع ثلاثة. من علّمها هذه الوضعية؟

خرائب متشابهة ومتواترة على ربى مربعة كونتها دون شك الأنقاض والتي تجعلنا نفترض ما كانت عليه جوانب المأثرة. وذلك أمر معتاد: من نصف فرسخ إلى حوالي فرسخ. هي عادة ما تكون على يسار الطريق. وهي ربما كانت عبارة عن معابد صغيرة، ومحطات للذهاب إلى كاف، وفي العمق - من الخلف - ثمة حركة للأرض الواطئة.

شكل حمام الليف، أي شكل نصف قمر، ليس أمرًا نادرًا.

التقينا رجالًا جالسين في الأرض، إنه عريس. شاب يعزف على ناي طويل أصفر ذي بقع سوداء. وحيدًا يعزف للأربعة جميعًا.

هذا السهل لا ينتهي، إنه تشكل يفضي لليأس. وفي اليمين ما يشبه توالي سطيحات نراها من الجانب، أو حائط بطبقات عديدة، ثم إننا ننعطف يمينًا.

«كاف» يوجد فى قمة موجودة في أقصى اليمين، لكن من الصعب الوصول إليه بسبب التلال العرضية والمائلة التي تُبين جانبا عن بطونها. كان علينا أن نصعد على كل تل وننزل منه. ومن الأسفل على اليسار، يبدو أفق السهل مليئًا بالجبال، والعديد منها في شكل نصف قمر أو نهد (أحدها يشبه حمام الليف)، لكن هذا الأثر من فوق يقلّ.

دار الباي - حمامات. ليلة رائقة. سقاية بأحجار كبيرة منحوتة وماء زلال، وزنجيات يضربن غسيلهن بالأرجل، ورشات طين بيضاء في كل مكان. امرأة بالغة النحافة في الماء حتى الركبتين شمرت عن سروالها حتى أعلى الفخذين.

صهاريج الريف. ممرات عشر مع باب روماني محفوظ بشكل أفضل من «أدنا» عشر صهاريج متوازية، وكل صهريج بثلاثين خطوة طولا على عشرة عرضا. ثمة صهريجان آخران، أي 12 صهريجا في المجموع.

من أعلى الصخرة نحو الغرب، ثمة خط من الجبال الحمراء والسوداء المدوّرة القمة، وجبل مجمبية، ثم منبسط طويل برأس في الأيمن، هي جبل ورغة وجبل كحمام الليف، جبل عرقوب المايز. ونحن نتابع نحو اليسار، ثمة خط واطئ جدًّا، مستقيم وطويل، ثم جبلان آخران يشبهان حمام الليف يسميان جبل الهرابة. منبسط آخر ثم جبل حاد القمة هو قرن حلفاية ليعود الانبساط من جديد؛ هذا منذ حمام الليف.

ثمة جهة الجنوب الغربي سلسلة جبلية أخرى. قمة مكسورة، ومرعى جبلي، ثم نحو الجنوب، ثمة خط كبير، ووراءه خط آخر جبلي يستدير نحو الشرق، وهذا الخط الأخير كبر بحيث صرت أرى ثلاثة خطوط. الشرق والشمال يحجبهما عني الصخرة نفسها التي أقف عليها.

حين خرجنا من الكاف، كان ثمة مسجد على اليمين، وسهل شاسع أسود. وحين وصلنا إلى الأسفل كان ثمة وادي الرمل. بالاستدارة إلى اليمين صادفنا نهرا وأشجارا ودفلى، وباب (صخرة)، وأكواخا على اليمين. انعطفنا بحدة إلى اليمين وتركنا على اليسار جبلا تكسوه الغابة بكثافة، إنه جبل الصديم (خنقة الترابية). تجاوزنا المقلع، فغدا البلد أكثر انبساطا

وأكثر غابوية ثم صعدنا. مجامع للغرانيت، شجر بلوط وزعرور. هضبة عارية فيها غدير يسمى ساقية سيدي لحسن. خلدت إلى النوم.

وفي الغد غابة على هضبة، ثم قعر. حاذينا سفح جبل على يساري، وِهادٌ وتموّجات للعشب لامتناهية؛ تتابع ومجردة وغابة. أبصرنا بسوق بني عروس على اليسار وخطوط حمراء.

ملاحظات سجلت في كرواسي Croisset يوم السبت 12 يونيو 1858.

الاثنين 24 ماي. الوصول إلى «الريف» في المساء

الريف. ضريح روماني على اليمين. أرى عند مروري به ليوفيوس[1] «Livius». المدينة تتراجع بسبب التلال العرضية التي تفصلنا عنها، علينا الصعود ثم الهبوط. دار القائد في الأعلى. مقعد من الإسمنت على اليسار قبل الباب، وفناء، ودرج طويل مستقيم ثم قاعة فسيحة. حمام تركي جيد. الريس إبراهيم الذي لا يخشى السخونة جاء لرؤيتي في القاعة الداخلية للحمام. إنه هو الذي يقدم لي القهوة دائما. عشاء عربي فاخر. ليلة رائقة. والقائد رجل صغير القامة ونحيل وأشيب.

في الغد زرنا المدينة. رحنا في الظهر بشكل احتفالي: كنا خمسة فرسان ثم سبعة، وكان يتبعني عشرون رجلا على الأرجل. يبدو ذلك الآن أمام عيني كحفلة تنكرية ولا أتذكر أي شيء. كان الطابع القاسي للمنظر الطبيعي ينتهي عند قعر الوادي. في بعض اللحظات ثمة مناطق عشب وأبقار، إنه مكان يشبه حديقة إنجليزية ثم تستمر الجبال.

نمنا لدى البدو. خيمة بيضاء مفتوحة. طلع البدر قبالتنا، ريح عاتية.

ظلال دواب الدَّوّار تمر كخيال الظل. انتظرت طويلا، أدب ولياقات عربية، وقصعة كسكس مشتركة.

---

(1) لوسيوس ليفيوس (285 ـ 204 ق.م) أول شاعر لاتيني معروف، وقد يتعلق الأمر بابنه الذي كان رجل سياسة مشهور

انطلقنا في الفجر، وانتظرنا أن تهدأ الريح. طوال الليل فكّرت في ليلتي الأولى في الأهرام. ثم إن المنظر صار رتيبًا. في الأعالي أمواج العشب التي لا تنتهي. كان غاسان لايزال متأخرا. رذاذ مستمر.

مفاجأة الدوّار، هي نساء إلى جانب الخيام غير محجبات. كنت أعدو بجوادي وعباءتي المبطنة على رجلي، وطاقيتي تحت قبعتي. زغاريد، طلقة بندقية، حفل فروسية، ابن القائد بنطاق أحمر. سوق بني عروس. كل هذا صار يتطاير في خضم الحركة.

سوق بني عروس. مدينة جديدة، فظّة وباردة وموحلة. السيد دو صيرفال رجل نحيل وجاف. أندريو صاحب الفندق وزوجته المكروسكوبية. نمت ونهضت ورحت لتناول العشاء. أقيمت مائدة الضيوف، وجلس إليها الضباط؛ وقذر وأبله هو مدير البريد بربطة عنقه الوسخة، وفي الصباح بدا السيد غوص مصابًا بمس من الجنون لأنه يعتقد أن الكل يشتمه. ثمة تشابهات بين طبيب الحيوان كاربونتيي في فيلقي، والسيد كونسطان وهو فارس طيب وثخين من فرقة الخيالة الذي يتناول الغداء معنا ولا يفتأ يردد «إنه غداء لذيذ».

الخميس 27، رحلنا عند الساعة الثالثة. كان لدينا سائسا بغال ممتازان. صعدنا وسط غابة خلّابة، وظل المعسكر على اليمين. التقينا ضابطين لم يفقها شيئًا في هذا اللقاء. ثم نزلنا المنحدر من جديد. ومن حين لآخر كنا نصادف عربة حطاب في الغابة. رمينا بمحاذير القائد جانبًا. أبصرنا ببرج وبعربيين في داخله. كانا عسكريين من فيلقه في حالة من التعب والإنهاك. أحدهما كان به كدمة في العين ولفحة شمس في الأنف. كانا آسفين لحال قائدهما. سألته: «أنت القائد كاربونتيي» فأمسك بي من خناقي.

اكتشفت في التحت مطحنة على جنب الماء. السيد أوبرجي رجل ثخين غير أنه بشوش. زوجته سمراء وذات مسحة أرستقراطية. لم يلزم القائد مكانه خلال العشاء، بل صار يقف ويتجول. قضينا الليلة في المطحنة.

وفي الغد صاحبنا السيد أوبرجي، مرتديا معطفا قصيرا من الفرو وحذاء طويلا. ثمة شجيرات دفلى والصفصاف المستحي. مكان مرور الضباع والأسود. قطعنا مرات عديدة

نهرا، وأرصفة واسعة، ثم صعدنا بعد ذلك. كان المنظر رائعًا ولذيذا ومليئا بالطراوة والحرية. ثم صار المنظر أكثر جفافا، والجبال الجرداء عادت للظهور. على اليسار الدور البيضاء وصومعة، إنها قالمة. سرنا طويلا في المنبسط.

مليسيمو: قرية قاسية مستقيمة. خط من أشجار السنط أمام البيوت الواطئة وأسيجة قصيرة: إنها الحضارة في جانبها الأكثر حقارة. لوحات إعلان تشير إلى بائعي الخمر، والدور فارغة، والنوافذ بلا زجاج. نساء في الحقول يزعقن الأرض أو يحرثن مرتديات معاطف الرجال وقبعاتهم. أبواب باريس منقولة إلى بلاد العرب، ووسخ ضواحي باريس تحت شمس إفريقية، والبؤس الذي قد يكون هناك، والحنق، والذكريات، والحمى، الحمى الشاحبة والهزيلة.

قالمة. مقهى السيد أوبريل. معسكر الفيلق يأخذ مساحة كبيرة. مسكن القائد الأعلى، السيد دو فانوري رائع ومحاط بالخضرة، إنه يشبه بشكل أجمل رجل الصناعة الفرنسي إدوار دولامار. تناولت الغداء مع قائدي، وسوف يخلّصني منه السيد بورّيل من الموظف بمكتب الشؤون الأهلية (بيرو عراب).

رفعنا الرحال في الثالثة. والجندي الأهلي، وهو رجل أبله من الزنوج الشقر، يتقدمني. الخضرة والماء. رصيف واسع، وعربات وكريولات. الحبس القديم، وبناية هائلة شربت فيها الحليب. مطحنة عثمان مصطفى، وبنايات صغيرة وأشجار صفصاف. وفي مقابلنا جبل واطئ.

نمت في الجناح الأعلى (مع ضجيج الكلاب والجياد) على زربية. قضيت ليلة عصيبة مع الناموس والبراغيث، وبما أننا في الأعالي فالبرد قارس، لذلك أوقدوا لي نارًا.

الشرطي، وهو رجل نحيف الجسم، يتمنطق بيقطان، يعرف الشرق بكامله

طريق المطحنة في قسنطينة مملّة حتى الجزع. فليس فيها غير جبال صغيرة متشابهة، ثم منبسط، وأسلاك التلغراف تارة على اليمين وتارة على اليسار. كل هذا ينم عن فقر بلا

عظمة فيه، وعن رتابة لا جلال فيها. سلطت سوطي على بغل أمتعتنا. بلغنا مزرعة فوشو وصاحبها رجل أنهكه الزمن، أعور وساعده منفك. تجرعت قنينة خمر البوردو التي اقتنيتها من سوق بني عروس بلذة لا تعادلها لذة.

انطلقنا في المسير مرة أخرى في الساعة الثالثة. انحدرنا بشكل شبه مستمر فبانت لنا مدينة قسنطينة الرائعة من بعيد. انحدرنا مع وادي الرمل؛ على ضفته نباتات الألوة. انزلقت بغلتي.

قسنطينة. دخلت دخول الفاتح المنتصر إلى قسنطينة بقنزعتي. نزلنا الفندق، ودفعت أجرة الشاب العربي الذي كان في خدمتي ومعه الجندي الأبله الذي كان غافيا في الزرع حيث ترك الحصان يرعى الكلأ. التقيت السيد فينيار وفييل ونيبيس وفينيو. أخذت حمّامًا عربيًّا رائعًا، وكان مدلّكي زنجيًّا ماهر اليدين. أمّا مدلّكي في الريف فكان يدلّك ركبتي برأسه. نمت في السرير الكبير للسيد فينيار.

سرنا للنزهة في البادية لدى السيد باولو دي بالما. توجد القرية الصغيرة الجديدة تحت شجرة خروب هائلة. عمنا في النهر ذي الماء الساخن، ثم تناولنا الغداء. أكلت حتى التخمة وقاومت النوم. رقص، والسيد كانيو يرقص رقصة البولكا الغجرية. الموثق (السيد فينيو)، مرتديا قبعة الطحان، يلعب الورق مع السيد دومينيك ابن صاحب المنزل. كان ثمة عازف للقيثار.

عدت للفندق مساء على ضوء القمر الذي هلّ في الأخير. خفت من السقوط بسبب حصاني.

السيد أمبور – الوكيل العام الإمبراطوري – رجل خفيف وقصير وبشوش، يرتدي قبعة من القش حريَّة بالبحارة، كف لباسه أسود، وينتعل طِماقًا.

الاثنين. راحة. ثم إني رحلت في المساء. السلام والوداع. كان الجندي الأهلي مخمورا يردّد: «سوف أروح لاستشارة أبي. ألا تعرفونه؟ إنه الأب إيدير». موظف مكتب الشؤون

الأهلية صعد للطابق العلوي للعربة كي يستنشق الهواء. توقفنا لنتناول شراب «الشّامبورو» المصنوع من القهوة والخمر، وكان أن هدأ مزاج العسكري.

قضيت يوم الثلاثاء في العربات وفي النوم. وفي المساء التقيت بالسيد مستشار العمالة، وهو رجل طيب غير أنه لا قيمة له. بقايا المسرح تحول إلى مدرسة بلدية؛ والصهاريج الرومانية تم تحديثها. وداعا أيتها الأصائل الوردية.

الأربعاء. امتطينا المركب مع السيد ريكوردو، مالك عنابة، المرتدي لنسيج محبَّك رمادي. صهد وثمة الكثير من النساء. من بين الركاب، القائد روبرت، ومحام من باريس وعجوز يرتدي معطفًا من وبر ويحمل مِنشقة يقود فتاتين. الفتاة الصغيرة والدركي العجوز المؤدب. صياد من صيادي إفريقيا، والبيروقراطي العسكري ذو السروال الأزرق، والنظارتان، والقبعة والعصا من قصب الأسل. ورجل من ألزاسيا؛ والكونت البولوني صياد الأسود، وهو رجل طويل القامة، أشقر الشعر وذو لحية ومكروه. ثمة أيضا رجل طيب، ضابط في فيلق الشرف، ذو شعر أشيب، ومن أقارب السيد ف. بارو ليلتان على ظهر السفينة، ورجلا سروالي معقودتان بمناديل إلى باطن معطفي.

قرأت كتاب فاكوري «ملامح وتكشيرات» لفاكوري[1]، ومجلدا من «نقد» طيكسيي[2]، و«نزهات خارج حديقتي لألفونص كارّ[3].

وصلنا مرسيليا في الثانية صباحًا. الجمارك لا يحتملون. روائح كريهة. امتطينا عربة نقل وبصحبتنا الممثلة العجوز لمدينة عنابة التي تمثل دور السيدة لوران، وسيدة من فليبفيل ابنة صيدلاني، سمينة وحبلى.

فندق باروصيل. حمام. وضعية مالية صعبة. بندقية وبائع أسلحة. رحت إلى فندق المستعمرات. الأب ريكاردو في الحديقة. عند العشاء لم يكن قد جاء بعد. رحت لزيارة

(1) أوغست فاكوري (1819 ـ 1895)، شاعر ومسرحي ومصور فوتوغرافي وصحفي فرنسي
(2) يعني فلوبير نقد وحكايات أدبية لإدمون أوغست طيكسيي
(3) روائي وصحفي فرنسي (1808 ـ 1890)

الأب كوفير، أصبت بمغص. وفي الأخير جاءتني فكرة زيارة السيد دو بودي. وجدته عند عتبة الباب. سرنا عدوا على الأفراس باتجاه السيد باروصيل.

مكتب السكة الحديدية. إحساس بالانشراح، وبالعودة والسعادة. أنا راحل. وحيدا في عربة خيل. أمتعتي تُفكّ في محطة القطار.

اثنان من العاملين في محطة القطار ذوا طبع جلف. أخيرًا راحا عنا فنمنا. وصلنا ليون. كنا بصحبة طبيب جرّاح في البحرية وكلبه، والبيروقراطي العسكري الرائح إلى سان كونتان، أو ما يجاوزها، أمّا الألزاسي فقد غادر القطار في الطريق ليتجه إلى ستراسبورغ. تناولت غذاء كاملًا مكتملًا في مدينة ديجون. أصابني سأم العشية وأعيتني الحرارة. يا لها من بلاد معتوهة فرنسا هذه. مررنا بفونطينبلو في جنوب باريس، ثم مولان، ثم بلغنا محطة القطار.

الشارع الرئيس في الصيف. وبيتي الفارغ. والزحام وأنا ذاهب إلى فييدو، هناك تناولت غدائي. رحت لزيارة السيدة برادي، وماسكيليي، وبيرسون، ودو توربي، وجدتهن كلهن غائبات.

سمعت صوتا من شق باب: «فلوبير، أهو أنت؟ فلوبير». كانت المرأة تبكي لمرض ابن أحد إخوتها. أخذت طعام العشية في المقهى الإنجليزي. نمت على الكنبة. تناولت غدائي في المقهى التركي. رحت لزيارة السيدة توربي، وساباتيي، والسيدة مايني. الآنسة لها مبصار في الوجه.

الاثنين. صانع الأسلح وصانع الفرو، والسيد دوبلان، إلخ[1].

وفي الغد أخذت القطار عند الساعة الثامنة والنصف صباحًا. بورجوازيان كانا يصاحبانني. بلغنا مدينة روان ثم المارستان.

هي ذي ثلاثة أيام قضيتها في النوم. رحلتي انزاحت كثيرًا عن ذهني، ونسيتها إلى حدّ ما. كل شيء غدا غامضًا في رأسي، وأصبحت كالخارج لتوّه من حفلة تنكرية دامت شهرين.

(1) أسماء أمكنة وتنقلات لا حاجة لاستعادتها.

هل سأعود للعمل، هل سأعاني من السأم؟

فلتنجلي كل طاقات الطبيعة التي استنشقت، ولينتشر عبقها في كتابي. ولي قوى الوجدان المتناغمة. لينبعثَ الماضي من جديد فيَّ. فيَّ أنا ولي أنا. وعلي العمل من خلال الجميل الحي والحق. والرحمة على إرادتي يا رب الأرواح. امنحني القوة والأمل....

ليلة الأحد 13 يونيو، منتصف الليل.

رحلة إلى الشرق

من عادة بلاد الشام أن تنتج دائماً أشياء جديدة وفريدة، وما زالت فلسطين ولبنان إضافة إلى قرطاج اللاتي حظين بجزء كبير من هذه الرحلة مقصداً للرحالة، فمناظرها وتقاليدها وعاداتها ما زالت جديدة في نظر الأجانب الذين يحطون الرحال بها.

لقد أطنب الرحالة في وصف رحلاتهم إلى هذه البلاد، كما كثرت النقوش الدالة عليها.

لم يترك الكاتب جانباً من جوانب الحياة في فلسطين ولبنان وقرطاج إلا وذكره، واسترسل في كثير من الأحيان في وصفه، فضلاً عن انطباعه تجاهه؛ كوصفه لأهل بيروت الذين يتخاطفون ثمار البطيخ القادم من يافا، وأطفالهم الذين يتخذون عمائم خضراء من قشوره الطافية على صفحة الماء، والنساء ذوات الجمال الأخاذ، وأسراب زيز الحصاد والحرباء تتجول في كسل على حافة النباتات الجافة، وأطلال في القدس حيثما وليت وجهك، وإحساس كئيب يتملكك من أثر شعورك بأنك تتجول في مقبرة، والحياة في دمشق تتركز كلها في السوق، والأسواق هناك عامرة تعج بالبشر والبضائع والضجيج، ولعل أكثر ما يثير الانتباه في أسواق دمشق هو وسامة الفتيان، وأهل دمشق دمثوا الأخلاق لينوا المعشر على وجه العموم، وحمامات دار الباي في قرطاج فيها أحجار سقاية كبيرة منحوتة وماء زلال، وزنجيات يضربن غسيلهن بالأرجل، وورشات طين بيضاء في كل مكان.

السعر 50 درهم


9 789948 172697



